بحث جامعي لنيل الشهادة

ما قبل الدكتوراة

النزعة الإنسانية فى كتابات جبران خليل جبران

الباحث

عبيد الرحمن

تحت اشراف

الدكتور فيضان الله الفاروقى الاستاذ المشارك

مركز الدراسات العربية و الافريقية

مدرسة دراسة الادب و الثقافة و اللغات

جامعة جواهر لال نهرو ، نيو دلهى

١٩٩٩

जवाहरलाल नेहरु विश्वविद्यालय
JAWAHARLAL NEHRU UNIVERSITY
NEW DELHI - 110067

4th Jan. 1999

Centre of Arabic and African Studies
School of Languages, Literature and Culture Studies

CERTIFICATE

This is to certify that the material in this dissertation entitled "Al-NAZAH-AL- INSANIAH FI KITABAT GIBRAN KHALIL GIBRAN" (Humanism in the Writings of Gibran Khalil Gibran Submitted by Mr. UBAIDUR RAHMAN, is his original work. To the best of my knowledge this work neither in part nor in full has ever been submitted to any University/Institution for the award of the same degree.

F. U. Farooqi
(DR. F. U. FAROOQI)
SUPERVISOR 4/1/99
CAAS/SLLCS
JNU

F. U. Farooqi
(DR. F. U. FAROOQI)
CHAIRPERSON 4/1/99
CAAS/SLLCS
JNU

GRAM : JAYENU TEL. : 6107676, 6167557 TELEX : 031-73167 JNU IN FAX : 91-011-6165886

الإهـــداء

إلى والـدى الجليـل المحترم

الذى شجّعنى على طلب العلم

وأشرف علىّ بكل عناية وحنان

كلمة الشكر

الحمد لله الذى وفقنى لإعداد هذا البحث وهدانى أن أشكر لكل من يحسن إلى. فمن الواجب علي أن أسدى الشكر والإمتنان الأستاذى الجليل المحترم السيد الدكتور فيضان الله الفاروقى الذى لا يألو جهدا فى ارشاد الطلبة وتوجيههم ومساعدتهم كل المساعدة. ولولا كانت عنايته ورعايته لما يسع لى أن أتقدم بهذا البحث فهو الذى حثني على مواصلة الدراسة والبحث واختيار الحياة الإكاديمية. وإقترح لى هذا الموضوع. كما أننى مدين بالشكر والثناء لجميع أساتذة القسم العربي الذين مدوا أيديهم المساعدة إلى فى الحصول على فرصة لإكمال دورة فلسفة الماجستير وأخص بالذكر السيد الدكتور ظهور البارى المحترم والسيد الدكتور بشير احمد الجالي الذين لعبا دورا فعالا فى هذا الصدد.

وأخيرا لا بد لى أن أشكر إخوانى وزملائى وبخاصة السيد منظر عالم والسيد سليم احمد والسيد نسيم احسن الذين ساعدونى فى جمع مواد هذا البحث وكتابته فجزاهم الله عنى خير الجزاء.

لقديم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: بين أيديكم رسالة لنيل شهادة ما قبل الدكتوراة، وهي تمثل دراسة وجيزة حول الموضوع:

" النزعة الإنسانية في كتابات جبران خليل جبران "

والهدف من تقديم هذه الرسالة هو إستعراض النزعة الإنسانية والتأملات البشرية والمفاهيم الإنسانية في كتابات جبران خليل جبران من خلال إلقاء نظرة عابرة على الأوضاع السائدة في القرن التاسع عشر التي ترعرع فيها جبران وجهر صوته في حق الإنسانية وإعلاءها وتمجيدها وتفضيلها فوق المادة والوطن والعنصر واللون ودعا إلى المساواة والعدل والحرية والأخوة الإنسانية وهذا البحث ينقسم في عدة أبواب لمعالجة الموضوع بسهولة ودقة.

فالباب الأول يحتوي على إستعراض دقيق شامل للأوضاع السائدة في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر فأحاول عرض صورة قصيرة للأوضاع السياسية، والإجتماعية، والدينية والإقتصادية في هذا الفصل، سأركز النظر على تسليط الضوء على المبادئ والقيم والنزعة الإنسانية ومفهومها ومعانيها السائدة في هذه الحقبة من الزمن، وفي الجزء الثاني من هذا الباب نحاول دراسة

بالأدب والفن وتطوير شخصيته وتنمية تفكيره وتوجيه دعوته إلى الإهتمام بالإنسانية وشؤونها.

وفي الباب الثاني سنقوم بدراسة النزعة الإنسانية ومفهومها وتصورها في الأدب الجاهلي وفي العصر الإسلامي والأموي والعباسي إلى عام ١٧٩٨ ثم تأثير الحضارة الغربية في الأدب العربي.

وفي الباب الثالث سنحاول إستعراض الإتجاهات الأدبية السائدة خلال أيام جبران خليل في الشعر والنثر، ومن ثم موقف أدباء الرابطة القلمية التي كان يترأسها جبران خليل جبران إزاء هذه الإتجاهات وبعد ذلك سنقوم بتحليل أسلوب جبران خليل جبران في ضوء كتاباته.

وفي الباب الرابع ستقتصر الدراسة على تحليل مفهوم وتصور الإنسانية لدى جبران وكيف حاول بث ونشر رسالته الإنسانية إلى الناس. كما أننا نبرز بعض الموضوعات التي تحمل رسالته الإنسانية مثل دعوته إلى أنهاض الطبقة الضعيفة من المجتمع والحب للفقراء والمساكين والنهوض بالمرأة. ثم دعوته إلى القيام بالعدل والمساواة والأخوة العالمية ونبذ كل ما يحول دونها باسم الدين والنسل والوطن. ثم تأثيره في الأدباء العرب.

والغرض من إجراء هذه الدراسة هو القيام بدراسة أسلوب جبران خليل جبران وفكره وتصوره تجاه الإنسانية. وبخاصة تسليط الضوء على دعوته

الإنسانية التي لا تكاد تخلو جميع كتاباته بهذا المضمون والتي هي الميزة الكبرى

تتميز بها أدبنا والأدب العالمي ولا يزال حيا بكتاباته ورسالاته

وفي هذا الصدد جدير بالذكر أن الإنسانية تحتاج بشدة إلى من يذكرها

أهدافها النبيلة وأغراضها الشريفة حيث أن الإنسان أصبح ماكينة والآلة

وتجري وراء المادة ولكنه لا يجد طمأنينة النفس والقناعة بالرغم من كل التطورات

التكنولوجية والعلمية التي لا تكاد تحصرها الإنسان الحالي، ولكن لا يزال الظلم والاستبداد

والقتل والنهب والسلب مستمرة في جميع بقاع العالم، ولا تزال المرأة تعاني من أبشع

أنواع المظالم وذلك لو ميا منى بلاد الحلم والرقي والتقدم بتم اغتصاب المرأة بمعدل

واحدة من الثلاث في كل ثانية، ولا يزال البقاء والفقراء يعانون من البؤس والفقر

والمجاعة من بقاء إلى خريطة العالم شرق آسيا وأفريقيا، يجد البشر يموت

جوعا وليس لدى الناس ان يشتروا الطعام بالملابس او مأوى يلتجأوا إليها

ومن جانب آخر لا تزال الدول العظمى تحاول أكل الشعوب الصغيرة بدلا من

العمل لانقاذ البشرية من معاناتها. لهذا مما يدعوني أن ألفت انتباه

القراء والباحثين إلى هذا الجانب وذلك لو اسطة كتابات جبران خليل جبران التي

تحفل بالمثل العليا للإنسانية وتدعو الكرامة البشرية وتسمو لتعانق فوق كل شيء

كما انني اود ان اقدم سجودي الى الباحثين والقراء انه ينبغي للإنسان

ان يبذل جهوده في سبيل خدمة الإنسان ويجعل موضوع بحثهم الادباء الذين

ذكرت أعلاه يستهم على الجانب الإنساني، لأن غاية اللغة والأدب هي لذة الإنسان

فاللغة هي الواسطة لنقل المشاعر والعواطف البشرية وليست غاية في ذاتها

استخدامها لذلك. ولا أن تصبح غاية في ذاتها.

وأرجو أن سيتم بهذا البحث كما توخيت إن شاء الله والله هو الموفق

والمعين.

عبد الرحمن

٣ يناير عام ١٩٩٩

الباب الاوّل (الف)

الفصل الاوّل: الأوضاع الاجتماعية - السياسة في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر

الفصل الثاني: الاوضاع الدينية والاقتصادية

الفصل الثالث: لبنان خلال الحكم العثماني

الباب الاوّل (ب)

الفصل الاوّل: جبران في لبنان

الفصل الثاني: جبران في امريكا

الفصل الثالث: العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية جبران

الوضع السياسى - الإجتماعى للعالم العربى خلال القرن التاسع عشر

إن ظهور الدولة العثمانية على منصة التاريخ حدث لا نظيرله فى العالم الذى بدأ تاريخها من بروز قبيلة صغيرة إلى أن أصبحت امبراطورية عظيمة فى العصور الوسطى كانت تتسع دائرتها الى جميع البلدان العربية وبعض من اوربا، فماذا هو السر فى ظهورها وإشادة دولة شامخة وكيف تمكنت من إقامة دولة مرهبة، وكشف الغطاء عن هذا الأمر يتطلب الى معرفة جيدة لنظام الحكم العثمانى والهيكل التنظيمى له. إذ أن نظام الحكم هو الذى يكمن بناء امبراطورية عظمى واستقرارها وإلا لقوم عدة وذهب كهبب الريح ولكن بقيت هذه الدولة لستة قرون من ولة ولكل اجلال وكراهة وشرف ولم ينتهى القرن التاسع عشر الى وصلت الى حافة الإنهيار وتقطعت رقعتها الى دولة صغيرة تسمى تركيا ولهذا ما سيعطينا فهما جيدا للأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية التى سادت فى القرن التاسع عشر فالهذه الإمبراطورية العظمى فنذكر جوانبا عن الهيكل التنظيمى ومقومات الدولة العثمانية وذالك بناء على كتاب الدكتور محمد عزيز هول تاريخ الدولة العثمانية.

يتميز الأتراك العثمانيون من بين الامم الأخرى التى ظهرت فى التاريخ وشيدت بنيان دولة بحد السيف واقتحن فى لجة عقود ولكن العثمانيين الذين أقاموا دولة واسع نطاق حدودها فى غضون ثلاثة عقود فحسب على بقعة الأرض الواسعة وأصبحت دولة عظمى فى العالم فكانت من رعاياها الاكراد والألبان واليونانيون

والإيرانيون والعرب والسلاف ، والألبان وما إلى ذلك ولكن الأخر الذى يميزهم من القبائل المتنقلة التى أقامت دولة لم تبق حكومتها إلا مائة سنة او مائة و نصف سنة بينما الدولة العثمانية التى وضع أساسها العثمانيون بقيت فى التاريخ لستة مأة سنة ولم تزل باقية بشكل جمهورية صغيرة حتى الآن وليس السبب فى بقاء هذه الدولة النزعة الحربية فى طبيعتهم لأنها توجد فى أقوام أخرى بل يمكن سرها فى النظام الحكومى الذى شكلوه والذى كان يعتبر فى زمنه أحسن نظام الحكم فى العالم .

وكان نظام الحكم يتضمن هيئتين هيئة ادارية وهيئة اسلامية وتضم الهيئة الإدارية السلطان وأسرته الضباط الحكوميين الجيش النظامى و المشاة وعدد كبير من الشبيبة الذين كانوا يتلقون التعليم للإلتحاق إلى الجيش و البلاط والحكومة وتكون بأيديهم السيف والقلم وزمام الحكم وهؤلاء كانوا يديرون الحكومة كلها ولكن الامور التى تتعلق بالقوانين الشرعية تحال الى المحاكم الشرعية وكما الامور المتعلقة بالرعايا غير المسلمين والنظم الطائفية للمواطنين الأجانب تترك امرهم بايديهم

وكانت الميزة الأساسية لهذه الهيئة أن أعضاءها من أبناء المسيحيين إلا شاذا ونادرا وكان كل عضو يدخل فيها كونه ملك للسلطان ولبعض حياته كلها على هذا المنوال ولو بلغ أعلى ذروة المجد والجاه والمنصب والسلطة وأما الذين

يدخلون في هذه الهيئة فكانوا أما اسارى الحرب او يشترون او الأشخاص من ضمن الهدايا التي تقدم الى السلطان او تحصل عليهم في الضرائب وكان من الضروري أن يدخل فيه الرجل من باب الرق وكان الباب مفتوحا لمن كانت أعمارهم تتراوح بين (١٠) إلى (٢٠) سنة ولكن الأعمار المفضلة هي ما بين (١٤) - إلى (١٨) سنة من العمر.

ومن الغريب أن الناس كانوا يحبون أن يدخل أبناءهم في الهيئة الحكومية ومن الذين لا يبتغون فكانوا يزوجون أبناءهم في صغر سنهم لأن الباب كان مغلقا دون المتزوجين والمسلمين فكان بعض المسلمين يرضون المسيحيين ليقبلوا أبناءهم و يدخلوهم فيها لأن الدخول في ذالك كان من أسباب الرزق والفضيلة.

أما النظام التعليم للهيئة الإدارية فكانت الهيئة في فهومها الواسع مدرسة يدخل فيها الطلاب للأبد و يتدربون باسلوب يضمن لهم النشوء البدني والفكري ولكن يركز النظر على تعليم فن الحرب وادارة الحكومة فكان الطلاب يدربون على التمسك بالانضباط الشديد و يرفع من منصب إلى منصب تدريجيا و تمنح لهم الجوائز والوسامات وفق مواهبهم وكفاءتهم يعاقبون بشدة إذا تخالف أحد النظم والقوانين للمدرسة أما بالنسبة للتعليم الفكري فمن الواجب أن تبلغ الجميع إلى حد محدود ولكن الأذكياء من الطلاب كانوا يدرسون اللغات الشرقية والمقررات الدراسية للوافدين العثمانية التي كانت تشمل على التعاليم الأخلاقية والدينية وتقول السير وينستر (لي باير) أن هذا النظام التعليم أزال العيوب والنقائص

الوارثية في الوصول الى المناصب الحكومية وكل السلطة الشخصية للنظام والقانون

والحافظ على الاستقرار والديمومة بإنشاء توازن القوة وجعل نظامهم أهلا

لدولة واسعة، وكان الغرض من هذا النظام أن تكلف أمور الدولة بالأشخاص

الذين ينتخبون على أساس مواهبهم وهؤلاء لهم نصيب وليلتزمون تحت نظام وانضباط

شديد ولما وصلوا إلى مناصب عالية في الحكومة حصلوا عليها بمجرد حق هذا لهم فلا تدب

فكرة فيهم أن يقيموا دولة قد تحل مكان الدولة العثمانية، ولكن لم يبق لهذا

التشديد في نظام انتقاء الأشخاص لمختلف المراحل بعد الملك سليمان ودخل

الضعف في النظام العثماني السلطان كان يترأس الهيئة الإدارية،

أما بالنسبة لحقوقه وصلاحيته ما كانت له أي حدود فيكون السلطان مطلق

العنان وهذا ما يقوي السلطة والدولة ولكن يكمن فيه خطورة عظمى أيضا

وهي إذا كان السلطان يتمتع بالمحاسن الأخلاقية والأوصاف الملكية اللازمة

لتدبير الأمر فيبقى نظام الحكم على ما يرام وتنمو الدولة وتتطور أما إذا ضعف

ذاته فتضرب الأضعاف والنقائص في الدولة لهذا هو المنصب الوحيد الذي

كان يخص بالأسرة العثمانية وإلا كل مناصب الدولة كانت توزع بين المثقفين و

المدربين حسب مواهبهم ولكن لهم في هذا الأمر أن أبناء الملك يكلفون أولاً

لمناصب الولاة ثم يتم تعيينهم كالملك ولكن في عصر الانحطاط لم يبق هذا الاهتمام

ويبدو أن السلطان كان حاكما مطلق العنان لكن هذا الأمر مقتصر على إدارة

الحكومة وكانت أيديه مغلولة بالشريعة والقوانين الوطنية والتقاليد والأعراف

فما كان له أن ينتهك لهذه القوانين ١ - القوانين الإسلامية ٢ - القوانين

القوانين المكتوبة من قبل الملوك السابقين ٣ - التقاليد الشعبية والأعراف

القومية ٤ - القرآن: الأحكام السلطانية، فكان السلطان يلتزم لهذه

القوانين ولا يتجاوز لحدودها وبخاصة ما كان يجوز له على أي حال أن يتغاضى عن

الشريعة أو يتركها

أما منصب الملك فكان يتولى ذلك المنصب إبن الملك وكان يخيل لهذا

المنصب غير ذلك من اخوان الملك إذا كان ليس له ولد ذكر ولكن لسبب

لهذا التقليد ساء النظام وإنتشرت الفوضى في الأسرة الملكية وخاصة بعد

وفات الملك فكان يعم القتل لأبناء الملك الآخرين ولسبب ذلك تم إقرار -

القانون الجديد أن يتولى لهذا المنصب اكبر شخص سنا في الأسرة العثمانية،

الديوان: - كان مجلس الشورى للسلطان يسمى ب "الديوان"

ويضم رئيس الوزراء ووزراء ٥، شيخ الإسلام القاضي وقواد الجيش وامير

البحر العثماني وما إلى ذلك فكان الديوان لا يمثل المجلس الإداري فحسب بل

المحكمة العليا أيضا وكان الجماعة ينعقد في شهر رمضان وأما بقية الشهور

فكان ينعقد الجماعة أربعة أيام في الأسبوع طول السنة وفي بداية الأمر

كان السلطان يترأس الجلسة شخصيا لكن فيما بعد ترك اخلافه الأمر

على رئيس الوزراء .

الشرطة :- كان هناك في الجيش الركبان يسمى بالشرطة وهي الأصل لوجود في الولايات طبقة من الأوطاعيين الذين حصلوا على أراضي محتلفة في زمن مالقدير لخدماتهم في إنجاز مهمة بحسن وشجاعة فكان من الواجب أن يأتوا محدد من الشرطة او الجنود إلى الحرب حينما يطالبهم السلطان وكانوا يتحملون نفقات هذه الجنود وماكان على السلطان أن يتحمل أي شئ من نفقاتهم وكان هذا الجيش يشكل اكبر جيوش للسلطان عدداً وكان السلطان يطلق عنان هؤلاء الأوطاعيين في منطقاتهم فكانوا يديرونها حسب مايشاؤن وماكان عليهم إلا الطاعة في الأمور الدناعية او العسكرية لهذا تسبب في ظلم وظالم على الناس في عصر الإنحطاط للدولة وتخلفه في القرن التاسع عشر .

الهيئة الإسلامية :- تضم هذه الهيئة المسلمين وماكان لهم اى علاقة بالهيئة الإدارية . فالسلطان يكون رئيس هذه الهيئة أيضا والفرق بين الهيئتين . الإسلامية والإدارية . أن التجنيد في الإسلامية يكون من بين أبناء المسلمين والإدارية من اصول مسيحية وكان لهذه الهيئة نظاما تعليميا منفصلا وكانت جماعة العلماء تشرف على هذه الهيئة وكان لابد من اكمال الدورة التعليمية المخصصة لهذه الهيئة لكل من يرغب في الإنضمام إليها وكان من بينهم المدرسون المفتون والقضاة وكانت بأيديهم نظام العلوم والديانة والقانون

وكان يعيّن لكل مدينة كبيرة ثلاثة وصفيه وكان القضاة في المرتبة الاولى ثم المفتيون وكان تعيينهم لطول الحياة وما كان من حق هؤلاء أن يفتوا في اجراء بعض في الحدث إلا إذا وصل الأمر اليهم . وكان عليهم أن يصدروا الفرار حسب المذاهب الحنفي ولكن شغلهم أن السلطان وخياطا لحكومة في سلطنة يضطرون من حين وآخر الى الرجوع اليهم للفتوى ولذا كان يلقب المفتي بالمفتي الأعظم وهكذا نال درجة اولى من القاضي وقد منح السلطان محمد الثاني المفتي لقب شيخ الإسلام وما كان يعين من جماعة المفتين بل من بين القضاة ويعينه السلطان وقد عين السلطان سليمان المفتي الأعظم رئيس العلماء وهكذا تفوق على جميع المناصب الحكومية ما سوى السلطان ورئيس الوزراء وقد يجيح اكبر من السلطان اذا أخذنا في الحسبان الأمر أنه هو الشارح والحامي للشريعة الإسلامية وكان السلطان تحت الشريعة ولذا كان بعض السلاطين يرتجون بالإنتصاب في حين دخول المفتي الأعظم في البلاط وكان السلطان يعطيه كرسيا للجلوس اربع من كرسيه،

وأما نظام العدل فإن القضاة من الهيئة الإسلامية يستمعون الى جميع القضايا المقدمة اليهم والمتعلقة بالمسلمين أما إذا كانت الأمور تتعلق بالمواطنين المسلمين والمسيحيين وغيرهم، فكانوا يسمعون ويصدرون القرارات ولكن اذا كان الأمر يتعلق بالأمور الدينية المحضة لجماعة ما

فكان لهم القضاة من تلك الجماعة وكانوا يصدرون القرار حسب شريعتهم و

كان هناك محكمة لرئيس الوزراء وممثل للسلطان يترأس رئيس وزراء

الهيئة الإسلامية وما كانت لهذه المحكمة للإستيناف فحسب بل المحكمة البدائية

أيضا لهيئة كان الباب مفتوحا لكل غني وفقير وكبير وصغير وترفع اليها كل القضايا

الصغيرة الكبيرة وتقضى فيها . وكان رئيس الوزراء وممثل للسلطان يحكم في

الامور شخصيا او ينوب عنه أحد القضاة في حال ارتباطه في شئون الدولة و

لكن طرء تغير كبير على نظام العدل والإنصاف واحتل مكانة النظام الغربي

للعدل والإنصاف وبدأت تقضى الأمور حسب ذالك النظام)

وكانت الدولة تجبي المحاصل والضرائب من هذه الأرض كلها وتنفق

في ادارة الحكومة وحماية الدولة وتوسيعها ومناهيها وذالك أن لمباشرة

او لطرق الاقطاعيين او الشيوخ للقبائل التي كانت تحكم في بعض المناطق و

تدفع للسلطان جزية تتدخل الدولة في امورها والجدير بالذكر في هذا الصدد

أن مصر كانت تحت نظام خاص فكان الوالي يبعث من الباب العالي وهو كان يستلم

المحاصل ويرسل الى الخزينة العثمانية ولكن بالنسبة للحرمين الشريفين

فضلا عن جباية المحاصل كانت ترسل كمية هائلة من محاصل مصر الى الحجاز .

وفي مستهل القرن التاسع عشر شهدت هذه الدولة العثمانية تغيرات عديدة داخل البلاد العربية و خارجها ومنها تغلغل نفوذها و سيطرتها على الولايات الإسلامية والغلات المناطق الاوربية من يدها و أضف الى ذالك مؤامرات الدول الاوربية لاضعافها وتحريض القوات داخل الإمبراطورية على التمرد ضدها ولم يعد من امكانها أن تحافظ على سيطرتها بسبب سوء نظام الحكم وقلة وسائل النقل والاتصالات والأكثر من ذالك الإعتماد على الأسلحة القديمة في الدفاع عن نفسها والاغفال عن تطورات الحديثة في البلدان الغربية ومثلها في السير مع مواكب الزمان ، ونظرة عابرة الى البلدان الغربية في القرن التاسع عشر سوف تبين لنا كيف كان الوضع السياسي والإجتماعي والإقتصادي تحت الحكم العثماني فيها ، فكانت تركيا تحكم على البلاد العربية كلها بواسطة الولاة والامراء من الأتراك الذين كانوا ينوبون عن الدولة العثمانية ولم يكن للمواطنين المحليين نشاط او نصيب في الحكم و الحكومة فيكون الوالي الحاكم المطلق من ولايته وما يكون من همّ التركيا إلا استلام الضرائب باسم الولاة .

كما أن الأوضاعية تسود في جميع ولايات الخلافة التركية و ما كان للولاة و الأوضاعيون إلا أدوات السيطرة للولاة على عامة الناس وصح ماكتب ابن المقدسي عنه نالا قطار العربية عمر ما لم تكن تحكم من قبل الدولة

العثمانية حكما حازما منظما اذا طغت عليها اقطاعيه مستبدة وسار عليها فساد اداري مرهق ولم يكن من همّ للاقطاعيين إلا جلب الرعية اشباعا لأنفسهم وارضاء لأولى الأمر في الاستانة ، فكان الشعب ليس إلا غنما يرعى ليجزّ صوفه ويؤكل لحمه ويدرّ لبنه ويصدق ذلك بنوع خاص على سوريا ولبنان فقد بلغ العبث الإداري بهما أن كان السلطان العثماني يطلق بينهما أيدي الاقطاعيين فيحكمون رعاياهم حكما مطلقا لقاء ما يدفعونه له من أموال او ما يقدمونه له من مساعدات ، ونقل الكاتب قول أحد شهود عيان فيكتب كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف ويسومونهم الذل انواعا والظلم أشكالا ولشريعة الرجل منهم ارادته السخيفة والحاكم يفتل ويشغوف ويشره اخلاق الشعب وكانوا لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الأهلية ، يكرهون العدل ويعشقون الظلم لا يرحمون ضعيفا ولا يحرمون باعه

لهذا القول ليس بخال من المبالغة والتشديد ولكن يدل على نوع النظام وارتكاز القوة والسلطة في أيدي الأمراء والاقطاعيين وطبائع وامزجة هؤلاء المتسلطين وقد جاء العديد من الامراء الذين حاولوا إصلاح الاوضاع وتطوير بلادهم

أما بالنسبة لحرية العقيدة والديانة فلم تزل جميع الشعوب والأمم من

---

[1] الفنون الأدبية واعلامها لأنيس المقدسي ص - ١٢

رعايا الدولة العثمانية تمتع بكل حرية لإظهار واعتناق اية ديانات او العقائد

وليس هناك اية محاولة لتحويل السكان من اديانهم الى الدين الإسلامي قهرا

ولو أن المسيحية ظهرت دائما تولت الحكم في مختلف الأراضي لن ترضى عن المسلمين إلا

بتغيير ديانتهم بالقهر والجبر -

أما السؤال عن حرية الرأي والتعبير فلا نرى صدقا واستقلالا للدولة

العثمانية في هذا الصدد ويدل كلام الشراد والأدباء على أن الحكام العثمانيين

في القرن التاسع عشر سمحوا وعاشوا ولقوا اذا أمروا من الأفكار والآراء

التي تنقد الحكومة او تطالب الحكومة والإستقلال لمنطقة ما كما أن الصحف

والمجلات أن نشرت فتضمنة لهذه المواد اعتقل صاحبها على الفور واغلقت الجريدة

وبلغت المظالم ذروتها في عهد عبد الحميد - الثاني تم اجداد المحامي الكبير

لحقوق الإنسان الأديب سامي كمال الى متجرح واعتقل صانع عنه

ولقي الكثير من الناس الذين جهروا اصواتهم في الحقوق الإنسان ولعل

أحسن تصوير لسلب الحريات التعبير هو ما جاء في قصيدة للزهاوي قالها في

الأستانة الوالي سنة ١٨٩٧ وهي كما سنرى من أشد ما هو جهت به ادارة

ذلك العهد وقد كان عقابه النفي من الأستانة الى وطنه لبغداد وهاكها

وما هي إلا دولة همجية : تسوس بالقضي هواها وتعمل

عن تاريخ دولة عثمانية ج ٢ ص ٤١٩

فترفع بالاعزاز من كان جاهلاً = وتخفض بالإذلال من كان يعقل

لقد عشت بالشعب أطغى ظالم = بحيله من جوره ما يحيل

فيا ويح قوم فوضوا أمر أنفسهم = الى ملك من فعله ليس يأل على

أما الحرية تشكيل الأحزاب السياسية والمطالبات للحقوق المساوية في الحكم فكان ممنوعاً وما كان منها أي نسخ لمثل هذه النشاطات بل يُعتبر تمرداً ضد الدولة العثمانية وقد كبحت مثل هذه النزعات بكل شدة وقساوة وهذه هي طبيعة الحكم الملكي الذي لا يحمل أي مشاركة في الحكم ويحاول في المحافظة على احتكاره وذلك ما نشاهده حتى يومنا هذا في البلدان العربية والأخرى التي يسود فيه نظام الملكي فتقضي على كل هذه المحاولات بشدة

أما الحقوق المساواة لجميع الشعوب تحت الحكم العثماني في مشاركة الحكم والحكومة وفي كل شيء فقد حاول العثمانيون ادخال بعض الإصلاحات تحت الضغوط من قبل الدول الغربية والمحامين لحقوق الإنسان والحرية الرأي وما الى ذلك داخل البلدان العثمانية ولكنها لم تكن إلا وعوداً وقطرة ماء من البحر ولم تُنفع هذه الإصلاحات الشعوب وقد عرض شاعرها الإستعمار استغلالاً للوضع وتضعيفاً للدولة العثمانية ومحو سطوتها وجبروتها للأبد بل قسمت الأراضي العثمانية من العربية والأجنبية فيما بينهم ،

على الإتجاهات الأدبية لأنيس المقدسي ص ٣٣ - ٣٤

ظاهرة عامة في القرن التاسع عشر أنه نشأت الحركات الوطنية والمشاعر القومية في الأقطار العربية وقد ساهمت الإرساليات التبشيرية فيها بصورة فعالة نذرتها الدول الاوربية لاسعاف الدولة العثمانية وصورتها كالظالم الغاشم الذي سلب الرعية حقوقهم الطبيعية ولمص دماءهم لاشباع أنفسهم وظهرت هذه المشاعر لتشكل الحركات منظمة ضد الامبراطورية ورفعت النزعات لاستقلال بلادهم وحريتهم وكلها انقلبت لصورة صراع بين الشعوب العربية والدولة العثمانية وفي ظل هذه الاوضاع يمكن لنا تصور الوضع السياسي في ذلك الوقت إذ أن الطبقة الحاكمة تحاول بشتى المحافظة على حكمها بكل أساليب متاحة لها وتعتبر كل الحركات لهذه تمردا وعصيانا ضد الدولة وتسلب جميع الحقوق المدنية والإنسانية وتوقع شتى انواع المظالم على الدعاة الى الحرية والإستقلال ومن جانب آخر يحاول هؤلاء استقطاب الرأي العام في عالمهم ومن لا يساندهم يظلم عليهم ويبدأ الصراع بين الاثنين وتبقى عامة الناس طعما بين العجلين والملفت للنظر أن اول من نفخ الروح الوطنية في الأقطار العربية ، هم المسيحيون لانهم كانوا وثيقي الصلة مع اخوانهم في الغرب وكان أفكار هؤلاء أيسر لهم منزى في التاريخ أن الشخص الاول الذي نظم اول منظمة هو المسيحي وكذا الأشخاص الذين لعبوا دورا نشطا في ذكاء الروح القومية هم المسيحيون ثم هبأت جماعة سلمة ودعت الى التحلل من الحكومة —

السلطة المستبدة واستقلال بلاد حاول في مقدمتها مصر التي كانت تتمتع بحرية منذ وقت طويل وفي وقت قصير دوّت صدى الاستقلال في جميع الأقطار العربية حتى أن الزعيم مكة هذا تركيا ضد الاستعمار الانجليزي وساندته في الحرب مع تركيا ومن بين ابرز الدعاة الى الحركات القومية ابراهيم اليازجي، عبد الرحمن الكواكبي، معروف الرصافي، جميل الزهاوي، مصطفى كامل وهناك عدد لا بأس به وما من الشعراء في مصر النهضة العربية الا غنّى الغناء القومي الوطني واشتد الغناء القومي والدعوة الى الاستقلال عند احتلال — الاستعمار الانجليزي والفرنسي على الأقطار العربية، فقد التف الجميع من المسيحيين والمسلمين العرب على بذل الجهود وتقديم التضحيات في سبيل الاستقلال والحرية.

الوضع الاجتماعي :- الوضع الاجتماعي دائما يكون مرتبطا بالجو السياسي الذي يسود في البلاد يتغير الوضع حسب تطور الوضع السياسي من ناحية العمران والبنيان ومستوى المعيشة اذا كانت البلاد تتمتع بأمن وسلام، يكون الاقتصاد في حالة جيدة وتتوفر للناس فرص جيدة للتسابق في مختلف المجالات العلمية والثقافية والاجتماعية وان كان الجوهر سلام فلا يزال يعاني المجتمع من مختلف المشاكل فضلا عن التطور والتقدم فقد شاعت في القرن التاسع عشر الزنا والاوهام والتقاليد الغريبة. ولا عجب أن يكون ذلك سائدا

في شعب أمي إلا القليل منه نالأمية جوملائم كل الملاءمة لانتشار المعتقدات الواهية . ومن ذالك اعتقاد الناس بالسحر وما يتعلق به من مزعوم الاوهام والخرافات، والسبب أن الاعتقاد بالسحر والشعوذة لم يقتصر بالطبقات الأدنى من المجتمع بل عم في ما بين الطبقة العليا أيضا . وإن الرغبة في مثل هذه الأمور لم تشاهد في بعض الأمكنة فحسب بل منبع العلم ومصدر النبوة والمعرفة أن الناس يزورون الاضرحة ويتوسلون بها الى الله سبحانه تعالى كما هو بين من السيد عبد الوهاب النجدي الذي شن حملة كبيرة منذ هذه الاعمال الخرافية الضالة .

أما الحياة العائلية فكان الرجل يملك البيت ويديرها كيف ما يشاء وما كانت المرأة تتمتع به الحقوق وامتيازات التي ما كانت لها سموحا أن تظهر امام الرجال او في الاماكن العمومية وربما كانت المرأة المسجية تتمتع من الحرية بنصيب اوفر من نصيب أختها المسلمة إلا أنها هي أيضا كانت تخضع لنظام الاحتجاب وكلتاهما مشاهدتان بالجهل العام وتناسيان كثيرا من حقوق الحقوق كما أنها لا تحق أن تختار لنفسها زوجا بخيارها بل الأب رئيس الأسرة كان يزوجها بمن يشاء وأصبحت المرأة كالسلع التي تباع وتشترى .

كان المجتمع العربي مزيجا من الشيعة والسنة والمسيحية والدروزية وخاصة بلاد الشام والاهم منها لبنان وسورية وما كانت العلاقات بين هذه

الاقطاعيين المحليين ولغة الضريبة النظامية و أجبر الناس على الاعتراف بحقوق غير المسلمين في تشغل المناصب في الحكومة المحلية و صرح أن الجميع سواء امام القوانين بغض النظر عن دياناتهم عله

وكان قبل ذالك لم يكن المسيحي في مدينة دمشق يجرؤ على أن يظهر امام الناس إلا بها ناعلا بعمامة بيضاء او حمراء او الخضراء ولم يكن لمسيحي أن يشغل وظيفة من الوظائف العامة في الدولة

ولكن الجنون الطائفي لم يزل يثار حين وآخر فيما بين مختلف الجماعات الدينية وخاصة في بلاد الشام والاهم منها سورية ولبنان و التعصب الديني لم ينحصر في الديانة المسيحية والإسلام بل فيما بين مختلف فروع ومن والده وقد شهد العام ١٨٦٠ اقتتال اضطرابات طائفية مما أدى الى مقتل ألوف من المسيحيين و أخرت حيلة للاستعمار الفرنسي أن يتدخل في شؤون هذه البلاد.

الوضع الاقتصادي والمعاشرة

كان الوضع الاقتصادي في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر عبارة عن بؤس وفقر وما كان الى ازدياد في تلك المنطقة إلا لعبء العثور على النفط فيها وهذا ما اخرهم إلى البحث عن الاوطان التي قد توفر ورزقا فهنى ليتسنى لهم ان يعيشوا حياة طيبة في طبقة طلق وكما ذكرنا سالفا أن الجو السياسي لم يكن يسمح لهم

عله HISTORY OF ARABS BY P.K. HITTI . PAGE NO 746

الجماعات على ما يرام بل كانت الديانة تستخدم لاثارة المشاعر الدينية واضرام النار الطائفية ضد الأخرى فكانت القلوب متنافرة ونشئ الظنون لبعضها ببعض وتحل الريبة والبغضاء محل الثقة والإخاء وكان كل رجل يظن كل رجل غير متدين بدينه جازلة القتل والاعتداء عليه لا إثم عليه في ذالك ولا حرج في ابتزاز ماله وعرضه وقد انتشرت عنده الروح التعصبية في عمق السواد الأكبر من القوم أما رجال الدين فكان لهم سلطة دينية على الناس فبدلا من إخراج الناس من ظلمات الجهالة واثارة اذهانهم كانوا يهم التشديد في الدين واوامره ونواهيه حسب رضاهم بل ضموا بعض الامور في الدين وما كان له من أصل مثلا فشاعت الناس السلطان ظل الله وليس لهم ولا هذه الفكرة

و أما رجال الدين من المسيحية فكانوا يلقون الناس بانهاج جهالة — بسيطة متواضعة وكانوا يعيشون جهالة رغدا وذالك معتمدين على اسراف الناس التي يكسبونها من عرق جبينهم ،

وكان فريق من العلماء المسلمين يرون معاملة الذمي (المسيحي) و غيره من أهل الكتاب بالحسنى طبقا لتعاليم الدين الحنيف ولكنهم لا يجسدونها بالعمل فكان المسيحي في الشام في اوائل القرن الماضي عرضة للإهانة والذل ايما وجه وكان المسلم يسيء معاملته واستمرت الحال على هذا المنوال حتى فتحها ابراهيم باشا فانتهج سياسة المساواة وقال نيقولا حتي في كتابه " ازال صلاح جهالة

ان يعبروا عن آرائهم بكل حرية وليشكلوا الأحزاب والجمعيات ويحلم ببناء وطن مستقل لهم، وشارك ذلك الضالعين بالكانوليكية. السبب في الذهب منح لهم فرصة أن ان يشاهدوا الجو العام القلق في الغرب وخاصة بلاد امريكا التي كانت في ذروة الرقي والصخب قوة عظمى وكان الناس يتنفسون في جو قلق وفيها فرص طيبة لاسباب الرزق والعيش الجيدة. منيد أيضا هجرة اللبنانيون والشوام افواجا إلى بعض البلاد في منتصف القرن التاسع عشر، ومن اسباب الهجرة لدارسنا حصرها في ثلاث: الفرص الطيبة لكسب العيش ورفع مستوى الحياة (1) الفرار من ظلم الإقطاعيين والأثرياء. والتنفس في جو طلق من العلم والثقافة والحرية في بلاد الغرب وبخاصة في امريكا. والى هذا أشار الكاتب محمد غني حسن في كتابه (1) "الشرق المهجر"

DISS
920"x"M83:g
28M2

فالهجرة من سورية ولبنان إلى امريكا لم تكن في مجموعها إلا فرارا من سوء الحالة في الاوطان، او للبحث عن الضيق والتماسا للرزق في افق فسيح او التجاء إلى كنف الحرية الأمين في بلاد تقدس الحرية بعد ان ضاقت نفوس الأحرار بالاوطان كما يقول شكري الشد.

TH-8306

ايه لبنان يستعد الله أنا ... هاجرناك عن خلي وصلابه

انما الهجر المقام بأرض آل ... أرز للحرية ذلة ومعابه

كيف لا يهجر الأبي مكانا ... ملأ البأس وجوه ورحابه

اما الشاعر المصري احمد زكي ابو شادي فقد أحس بخيبة التقرير في لهفة مصر فتركها سنة ١٩٤٦ بعد ما هجرت إلى امريكا بقوله.

Jawaharlal Nehru University Library

(1) الشرق المهجر - ص. ٥٢

وغربة الفكر في دار يجتمعا ـ أسى على الحر من فقدان نائله

و فلا صحة القول ان اللبنانيين والسوريين اضطروا إلى الهجرة لأسباب عدة، و أهمها سعيا لطلب الرزق وتحصيل المعيشة الجيدة وفرارا من بطش الولاة والحكام والتنفس في هواء طلق من العلم والثقافة و المعرفة.

لبنان خلال الحكم العثماني

توسع نطاق البلاد العثمانية بقيادة سليم الاول حيث انه اوقع الهزيمة على المماليك في عام ١٥١٦-١٥١٧. وضم لبنان في امير الموريته وجعلها جزءاً من ولاية الشام وكان والي الشام يدير هذه المنطقة بواسطة الاقطاعيين المحليين وكان هؤلاء اما ماردينيون او دروز يحكمون في التابع بأمراء لبنان.

ومن أبرز امراء لبنان فخر الدين الثاني (١٥٥٦-١٦٢٥) الذي بلغت سلطته ذراها، او جماعي زمنه هو الذي حاول بكل أساليب مشاغلة ان يبني قوة مستقلة مسيطرة على جميع مناطق لبنان والأمراء العثمانية في الجنوب ولقد الزعيم عزز علاقته مع الدوق الاعظم في ايطاليا. وفي عام ١٦٠٨ انقاض الثنائية تجارية بما فيها مقره عسكرية بوجهة من السلطان العثماني فأرسل سلطان جيشا لبلقنه دمشق اضطر فخر الدين الثاني إلى الالتجاء الى فلورنسا الحليف الايطالي ولكنه عاد في عام ١٦١٨ واستعاد حكمه في الضنية العوام واصبح حاكما فعليا من الحدود مصر اذ ان السلطان العثماني كان مشغولا بشدة في كبح التمرد في أناطولية الحرب مع إيران ولم يستطع ان يفعل شيئاً إلا الاعتراف بالوضع القائم. ثم تولى فخر الدين مهمة طامحة لازدهار لبنان ووضع خطة عمل لبناء جيش نظامي مزود بالأسلحة المستوردة من الخارج. واستقدم المهندسين والخبراء الزراعيين.

الايطاليين لتطور افضل للزراعة وزيادة انتاج الحرير والزيتون وبنجة [illegible] لذلك ازدهرت بيروت والسدون بسبب تعزيز التجارة والسماح للارساليات المسيحية من اوروبا ان تستوطن في بلاد الشام وهذا كان تطورا امام الفرنسا التي حاولت ان تؤكد انها الراعية لجميع العناصر المسيحية الكاثوليكية وتبرر هذا في الامبراطورية العثمانية ولكن طموحات فخر الدين باءت بالفشل الكامل حينما تولى السلطان مراد الرابع زمام السلطة بصورة هوذرة في القسطنطينية في عام ١٦٢٣. وبدأ الباشا الولاية دمشق المزود بالسلاح والجيش من السلطان حملة لانهاء القوة المستقلة للبنان وتم اعدام فخر الدين في عام ١٦٢٥ في القسطنطينية.

وفي عام ١٦٩٧ لم تعد أسرة ماني بامنية واختلت مكانها أسرة شهاب التي حافظت على سيطرتها حتى عام ١٨٤٠ وخلال القرن الثاني عشر عززا امراء شهاب وضعهم عند الفئات الأخرى في جبل لبنان حتى انهم تمكنوا من السيطرة على بيروت في وقت قليل ومن جانب آخر أخذوا في الحسبان ان تكون لهم علاقة جيدة مع الباشا التركي في طرابلس والسدون ودمشق. ومن أجل ذلك حاولوا من ممارسة السيطرة غير المباشرة عن طريق انهاء المنافسات العائلية. والخلافات القائمة التي إنشغلت دائما بالسياسة اللبنانية ولما استلم شهاب الثاني (١٧٨٨-١٨٠٤) زمام السلطة بلغت دار شهاب اوج نفوذها. وفي عام ١٨١٠ ساعد اللبنانيين في مقاومة الغزو الوهابي في الجزيرة العربية

ولكنه ساعد علنا محمد علي والي مصر فيما عزا ذلك الحاكم سوريا في عام ١٨٣١،

والتقى زمن الشهاب في عام ١٨٤٠ حينما استعاد العثمانيون سيطرتهم في جبل

لبنان. وعينوا قائمقامين ليحكما فيما هو الدين الدروز والثاني من الموارنة وذلك

تحت إشراف من الباشا في الدمن وبيروت،

وخلال الحكم العثماني المباشر تعمدت لبنان عدم الثقة المتزايدة

بين الدروز والموارنة والتي استخدمها العثمانيون كأداة وحيدة للمحافظة

على نفوذهم في لبنان واستغلت هذه الوضع الاجتماعي والاقتصادي

المتقلقل القوات الاجنبية مثل فرنسا وبريطانيا. فأيدت فرنسا الموارنة

وبريطانيا طبقة من الدروز بينما رغبت الحكومة العثمانية في الحفاظ الهيكل

التقليدي للحكم اللبناني لتتمكن من عرض سلطتها الدائمة المباشرة

وبلغ النزاع ذروته في عام ١٨٦٠ مما أدى إلى مقتل عدد كبير من

الموارنة بأيدي الدروز وفشلت السلطات العثمانية في السيطرة على هذه

الأحداث مما أسفر عن التدخل الفرنسي المباشر في شؤون لبنان

وتم فصل جبل لبنان من الحكم العثماني المباشر وعين والي مسيحي مستقل منها

والذي كان يساعده مجلس مكون من نواب من مختلف الفئات الدينية،

وخلال هذه الفترة ازدهرت لبنان إلى أن اندلعت الحرب العالمية

الاولى فأضعفت الحكومة العثمانية لبنان إلى سيطرتها المتشددة،

---

① ENCYCLOPEDIA THE MIDDLE EAST AND NORTH AFRICA: P. 661- 662

وبعد نهاية الحرب احتلت القوات الفرنسية لبنان وأخضعتها إلى ادارة فرنسية عسكرية وفي عام ١٩٢٠ تم التحاق بيروت والمدن الساحلية الأخرى" البقاع" إلى جبل لبنان لانشاء لبنان الكبير والتي سميت فيما بعد الجمهورية اللبنانية وفي عام ١٩٢٢ منحت جمعية الأمم فرنسا حق الحكم في لبنان وسورية. ولقي هذا القرار ترحيبا واسعا من المارونيين المؤيدين لفرنسا تقليديا. وخلال العشرين سنة تحت الانتداب الفرنسي التي حكمت فرنسا المارونيين ونتيجة لذلك تغير التوازن السكاني في لبنان فكان المارونيون المسيحيون يشكلون العدد الأكبر فيه ولكن لم يحصلوا على الأغلبية، وبالرغم من محاولة فرنسا اقناع السكان انها تعمل في صالحهم لم يكن قسم كبير منه راض عن ان تحكم فرنسا في لبنان او تكون جزءا من لبنان الكبير بل أرادوا ان يلتحقوا بالسورية او بدولة عربية أخرى. ونظرا لانشاء التوتر بين مختلف الجماعات تبنى الدستور لعام ١٩٢٦ على ان يكون للكل حظ متساوٍ في الوظائف الحكومية وحسب التقليد السائد يكون رئيس البلاد مسيحيا ماروني ورئيس الوزراء مسلما سنيا. ورئيس البرلمان مسلما شيعيا.

وفرت فرنسا ادارة معقولة إلى حد ما طرأ التحسن على المصالح العامة وسائل الاتصال والتعليم. وازدهرت بيروت كمركز للتجارة مع البلدان المجاورة ولكن الزراعة لم تشهد اي تطور بسبب الاهمال في صناعة الحرير والانكماش الاقتصادي الدولي. وكما ان تطور الشعور بالمصالح الوطنية العامة بين الطبقة المتوسطة

واشتدت الرغبة منهم لحرية أكثر. وتم التوقيع على معاهدة الاستقلال والصداقة اللبنانية - الفرنسية في عام ١٩٣٦ ولكن لم تصادق عليها الحكومة الفرنسية. وكانت تحكم لبنان بأيدي السلطات الفيشي (Vichy) بعد سقوط الحكم الفرنسي في عام ١٩٤٠ ثم احتلت بريطانيا والجيوش الفرنسية الحرة عام ١٩٤١. واعلن ممثلو الجيوش عن استقلال سورية ولبنان الذي وافقت عليه بريطانيا بسبب وضعها المتقلقل ولكن الفرنسيين الأحرار لم يكونوا مستعدين لمنح اي تحرر في سيطرتهم. وجرت انتخابات في عام ١٩٤٢ والتي اسفرت عن انتصار القوميين وانتخب بشري الخوري رئيسا لهم وشكل المجلس التشريعي ولكنه في عام ١٩٤٣ الغى ثم الغاء القبض على الرئيس وجمع الحكومة من قبل فرنسا إلى إعادة الحكم إلى الرئيس المنتخب ونقل السلطة اليه. ولعبت أزمة أخرى في عام ١٩٤٥ تم التوصل إلى اتفاقية سحب القوات الفرنسية والبريطانية تماما هكذا اصبحت لبنان دولة مستقلة في عام ١٩٤٦.①

① Encyclopedia of Britanica Page: No - 913 — 1915

جبران في لبنان

كم كانت الساعة مباركة و سعيدة حينما بشر الناس أنه جاء ضيف جديد في البيت ليلمع إسمه و اسم أسرته في سماء العلم و الفنون و سيبقى رسالة المحبة و السلام للناس أجمعين و سيبقى ذكراه في قلوب الناس الى الأبد و كانت لهذه الساعة يوم ولد جبران خليل جبران في السادس من شهر كانون الاول سنة ١٨٨٣ في قصبة بشري من اعمال لبنان عله و سمي جبران بن خليل جبران بن بخائيل بن سعد نزح جده من دمشق الى بعلبك و منها إلى بشعلا و منها نزح يوسف مع أخويه توسى و بخائيل الى بشري لبنان عله

وكانت أسرته فقيرة بائسة وكان ابوه خليل جبران البالغ عمره ٤٠ سنة سيما و داعية وكان يحب الخمر و النساء و ما كان لديه مزرعة واسعة فيشكو دائما من البؤس و الفقر ولا يكاد يسد حاجاته وكانت أمه "كاملة" زوجة اولا من رجل يدعى بطنا عبد السلام و رزق له ولد يسمى ليطرس و لما توفي حنا في برازيل زوجت كاملة من جبران خليل فأنجبت ولدا جبران و بثبن مريانه وسلطانه و قد قضى جبران طفولته في وادي قاديشا المقدس الذي

عله المجموعة الكاملة لميخائيل نعيمة ج ٣ - ص ٢٨

عله تاريخ الشعر العربي الحديث أدهم فتش ص ٢٩٥ دار الجيل بيروت لبنان

تُشرفه كبار العلماء المسيحيين والرهبان بالزيارة إليه وتُلقي دروسة الابتدائيه في مدرسة مُرتيه وكان جبران في طفولته يحب القصص والأساطير فكانت أمه تُقص عليه لطفا برغبة ابنه وتشوقه الى ذالك ذات يوم عاد جبران من مدرسة القريه

ممزق العباز وعندما استدّ طفله أمه من السبب أجابها والدموع في عينيه بأن أحد رفاقه دعاه "سهبان وبكاء" فلم يقبل الإهانة و ردّها بكلمة غير أن رفيقه كان أقوى منه لأنه اكبر فنه سنا فردّ اللكمة لكمات ولو لم يكن اكبر فنه لكان "قبره" ولكنه سيكبر ويقبره بعد فألفت عليه أمه موعظة في حسن السلوك وتجنّب الشر أما ابوه فدعاه جبانا وزاد في لكمانه لكمتين عله

كانت النزعة الإنسانية دخيلة في طبيعته ومنذ الصغر كان يكره الفوارق الدينيه والتقاليد التميزيه فلما رأى رجلا يبيع زيتا حلوا ناطلت من باب بيتها عجوز في يدها سجة طويلة وسألت الرجل أن يذيقها زيته ففعل وبعد جدال عنيف اتفقت واياه على السعر ثم دخلت وعادت بزجاجة وقالت لبائع الزيت أن يكيل لها ثلث أواق فكالها وقبل أن يفرغها من الزجاجة سألته العجوز عن دينه فأجابها أنه روم فادارت في الحال

عله المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمة ج ٢ ص ٢٤

ظهرها عنه وعادت بزجاجتها الفارغة إلى بيتها و أقفلت الباب وراءها

بعنف وهي ترسم علامة الصليب و تتمتم كلمات مبهمة و بعد قليل كان جبران

بجانب أمه يسألها وهو دبنا يا أمي ؟ نحن فوارنة يا إبني

ومن هم الروم ؟ هم نصارى مثلنا ، لماذا إسمهم روم و إسمنا فوارنة ؟ "

عليك أن تسأل الخوري يا إبني فهو ينبئك أحسن مني " هل يخنقنا

الرب اذا اشترينا زيتا من رجل روم ؟ كلا يا إبني و ما أن أتم الولد

أسئلته حتى دخل أبوه البيت و نادى بزوجته أن تأتيه بزجاجة

فارغة ليبتاع زيتا فأطل جبران من الباب و رأى بائع الزيت الذي

النعاه سابقا و رأى أباه يأخذ منه زيتا و يعده الثمن و يلح عليه بشأ

ول العشاء معهم و لمغيبة الليلة عندهم فكاد يرقص فرحا لكنه بكبح

عند ما الفرح - الزيارات في سبيله شاكرا لأبيه لطفه و كرمه علة

إن الوادي قادشيا من أشهر الأودية المقدسة في لبنان و قد اتخذ

الرهبان الايطاليين و يرالهم في سفح من سفوح جبال الارز المطلة

على الوادي وهو (دير سركيس) المحفور في الصخر وكان جبران - و

هو صبي - يتسلق الجبل و يقف لحظات مبهورا يطل على الوادي الساكن

ويسمع الغربان الناعقة المتفرقة في رؤوس الجبال وعوى إلى ينابيع

علة نفس المصدر ص - ٢٦

السائرة الى مصيرها في جوف الصخر على حين يبدو الأرز الخالدة صامدا كأنه بعض أناشيد الثورة يرهف بها التاريخ القائم بين السمع والبصر وتسبح بها الغيم العالية وكان ينفس لهذا الغناء الرهيب في قلبه من شوق الى الإنطلاق والتحرر من قيود الأرض وما في خياله من تهويمات فركشه وضباب سحري مايفتأ يزحف من البحر والحقول عليه

كان جبران يحب الخاتة والدسامة منذ صغره وكان يرجو دائما أنه اذا بلغ أشده سيكتب كثيرا من مهنة الرسالة وكذلك اذا كان لقراء قصة تجيش في قلبه الشاعر لكتابة مثل لهذه القصص ويحلم أنه حينما يبلغ أشده سيكتب مثله، ولكنه لا يبذل انتباهه الى الدروس غير المرغوب فيها بل يجعل مختلف أنواع التصاوير في الصف او يكتب الجمل الإنكليزية ويحكى أن المعلم كلفه بعض الأعمال فلما وصل اليه أن يرى ماكتب في كراسته فوجد أنه رسم صورة حمار على رأسه وبلغ لهذه الرغبة الى لهم الجنون حتى أنه كان يرسم ويلزق الورقة المرسومة فأولا لم يصل الى ماكان في ذهنه من الصورة وقد منح الله مواهب غريبة وذهنا وكان يطرح الاسئلة في الصف ويناقش اساتذته واذا لم يقنع عن اجابة المعلم ويلح عليه أن يبذل جهده

عله النثر المهجري الدكتور عبدالكريم الاشتر ص ٢٥

فكان يقول الزهراوي، لن يحل الأمر ولذا كان أساتذته يلقبونه بـ "الفيلسوف الصغير". وقد التمس منه ابوه عن الشيخ طنوس أن يدخل ابنه في إلهى معالمه بيروت على نفقته فلم يجب على ذالك ولكن أجاب عنه الشيخ عزيز "راعي الغنم أنسب له والفع" فخرج جبران عنده غضبان وكانت فتاة جميلة واقعة على بابها وبيدها "رواية" فسألت عنه وأكلت عليه فغص عليها ما حدث له ولقدمت اليه بكلمات التأسف والمواساة و أعربت عن غضبها على عمها ولم ينس جبران لها الحدث بل ان زادت مرارته في قلبه مع مضي الأيام[1] وقد استمر عليه التعليم الى مدة ١٢ سنة وقد نال ما كان يوسعه بل اكثر مما كان يتوقع من ولد مثله في السن

جبران في أمريكا

أمريكا الدنيا الجديدة في كل معناه توفر كل الرجاء لمن يستجير في احضانها ولقد فتحت كل الخيرات على من يسكنها و لفتح ابواب العلم و المعرفة لمن يلجئ اليها . ولعل من اهم اسباب الهجرة الى هذه البلاد من العالم العربي و خاصة لبنان و سوريه لهذا الجو للتقدم المعنوي والمادي

---

[1] جبران خليل جبران الفن والشخصية ص ـ ٣٨ (باللغة الاردية)

وقد نقل الدكتور المقدسي عن "المهاجر السوري" وكان الباعث الاكبر على المهاجرة اختلال الأحوال الإقتصادية في السلطنة العثمانية بفساد الحكومة الإستبدادية التي جرت على مذهب "فرّق تسد" التي لتضعضع الأمن وسادت الفوضى ودرس العلم"

وما بشر الناس بخيرات اميركا التي هرع الكثيرون الى البواخر تحملهم الى شواطئ العالم الجديد حيث انقذوا من غل التقاليد والتفكر من قيود الفقر والمظالم وتنفسوا الصعداء عليه

وكانت أسرة جبران فقيرة بائسة أحب أبوه أن تغير فقرها بالغنى والسوء بالحسنى بافضل ابوه أن يبقى في لبنان ويرعى الغنم والمعز ويبذر في الفلاحة والزراعة ولكنه لن يحول دون اعتزام أمه على الهجرة فسافرت أمه ونفسه واخاه وياه وسلطانه وأخوه لطرس الى بوسطن ونزلوا في حي من أحياء الصينيين في عام ١٨٩٤م

واشتغل لطرس بجانوت الثياب بينما بدأت أخته مارية مهنة الخياطة وادخلوا جبران في مدرسة بالقرب من مسكنهم ولما ازدهرت التجارة فادخلوه في مدرسة معمارية اخرى وقضى حول سنتين ونصف في هذه المدرسة واتقن اللغة الانكليزية الى استطاع ان يتكلم بها بكل طلاقة

عليه الإتجاهات الأدبية لانيس المقدسي ص ٢٧٩

عن الفن والشخصية اشفاق أسعد ص

وعطفه وحرصه على التعلم التحق بمدرسة ليلية أيضا وكان شديد الرغبة في قراءة الروايات وكلما ترى أمه أنه يقرأ الروايات الإنكليزية تُشجع عليها وكان جبران يقول لأمه وقد أكثر من روايات كالتي أمرها الآن "ثم قال جئت أن أقول لك أن تترك كتابك وتخرج تلعب قليلا من الكتاب في المدرسة الى الكتاب في البيت ستهلك صحتك ومع من ألعب مع اولاد الصينيين او الاروام الذين اوالسوريين ؟ ما اكثر الشقاء والألعاب بينهم يا امي هي بين البنات وما اجمل اللسان النضيف والقلب النضيف لأني لا حسن حالة في معتزل عنهم مع كتبي وقلمي وأقلامي الرصاصية فهي لغتي طاهرة ومع ذلك لا يأس لو ذهبت وشئت ولو نصف ساعة ؟ أما أخبرتك بها جعلة معلمة التصوير جاءت اليوم برجل ثالث أنه مصور يصور بيده يا أبي لا بالآلة وأرته بعض رسومي فقال لي انت فرخ مصور" ودعاني لزيارته في الغد

وصل ابنك ذاهب ؟ طبعا ، او ما كان الأفضل لك ولنا يا ابني لو ترددت في اوقات فراغك على محزن أخيك ودرست تجارته لتصبح في المستقبل عونا له بدلا من أن تحرف وقتك في التصوير ومطالعة الروايات ؟ يا للعجب ! أأم جبران تقول لهذا الفتى هذا القول فتى صوريوى ألف ثائر يا امي ما عدا الجرس وصفحة من الشعر أثمن من كل ما في الخزائن

من الأنسبة ، لكنا في حاجة الى المال سأبلك بالمال لا تخافي اذا مصر بطرس لن يقصر جبران ، يحفظكم لي الرب يا ابن عمه. كانت معرفة جبران باللغة العربية قليلة هي الآن فعاد الى لبنان في عام ١٨٩٧ و التحق بمدرسة الحكمة في بيروت و اختار من فنونها المواد و بذل اكثر جهوده في تعلم اللغة العربية بالإضافة الى دراسة كتب الحكمة و الفلسفة -

و قد تميز جبران في ما بين زملائه في المدرسة بمواهبه الفطرية وطموحاته الكبيرة فانه انتخب رئيس نادي الطلبة في المدرسة و كان الطلاب يصدرون مجلة " الزهرة " و كان جبران يحسنها و يزينها بصوره الجميلة الجذابة عندما كان جبران يكتب مقالا يعرضه على اساتذته فكانوا يشيرون عليه دراسة الكتب العباسية بما فيها كليلة و دمنة ، الأغاني ، مقدمة بن خلدون نهج البلاغة ، المقامات لبديع الزمان الهمداني ، و التوراة

و كان جبران يرى في ذاته شخصية كبرى و عالما فصار مرة كان جبران و يوسف الحويك زميله في الصف و اخفيا على قمة الجبل و نظرا الى الرؤية البشرى المتلبسة في لباس الندى و فوقها السماء الزرقاء فقال جبران لصديقه الناس في بشرى لا يرون إلا الضباب أما نحن فنرى الصفاء و ذلك لأننا على القمم و لأننا خلقنا لنصعد الكون .

عن المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمة ص ٤٤ - ج ٣

وما بعد ما انتهى من تعليمه في عام ١٨٩٩ قدم الى بوسطن ومن حسن حظه صادف جبران وفدا أمريكيا زائرا الى لبنان فلسطين ، ومصر والسودان وجعل جبران وليلدته الى لبنان وما ان وصل الى لبنان حتى فاجأه بلوث أخيه سلطانه ورجع على الفور الى البوسطن وهذا النبأ ترك أثرا بالغا فيه حتى قال : لقد مات الله إذا ماتت سلطانة وقبل أن يفيق من هذه المصيبة التي لحقته اصاب السل بأمه وأخيه التي أودى بحياتها فما كانت هذه المصيبة إلا زاده نقمة ويأسا . ولم يبق وهذه الأسرة إلا إثنان أخته مريانه وذاته فما كان له اى سبب مستقل للقمة العيش الا ما كان تكسبه أخته مريانه من محترفها فهذا كله كان يقلقه كثيرا وهنا يذكر ما اراده ان يجعل من حياته بعد التخرج كان يشعر بالقلق المتزايد ويحس بالفشل الكامل في حياته ولكن لم يئس جبران من مشاكل الحياة واعتبرها جزءا من الحياة البشرية وليس على الإنسان إلا أن يتغلب عليها بالسعي والجهد المتواصلين .

ورأى في هذه الدنيا بارقة أمل فيما دعاه الصحافي اللبناني أمين الغريب الى العمل معه في الجريدة "المهاجر" وأصدرت اول إصدار لها بتاريخ ٥ مارس عام ١٩٠٤ فكان اول مقال نشر لجبران "الحلم" ولكن لم تؤت كتاباته ما يصبو به حاجاته فانه فضل الرسالة اتمام اوّل معرض لرسومه في نفس العام ولكن ما ربح منه شيئاً و بعد ذلك اتم كتابا معرضا ثانيا ومن حسن حظه التفتت اليه إمرأة غنية

السيدة مارى هاسكل واشترت جميع رسومه ورعته الى اقامة معرض فى
كليات البنات التى كانت تديرها هكذا نشأت العلاقات بينهما الى أن ارسلته
الى باريس على نفقتها كى يتقن لهذا الفن تحت إشراف كبار الرسامين وخلال
إقامته فى باريس حافظ على علاقات الصداقة مع كبار الشخصيات فيها
ودائما حاول أن يتظاهر أنه ينتمى إلى أسرة سعيدة وغنية فى لبنان و
يمتلك مقتنيات كثيرة فيها وذلك من أجل إكبار نفسه فى اعين الناس
وقضى ثمانية كاملة فى باريس ولم يلق اى قبول من أية ناحية فكان ظاهريا
وكان يفكر دائما فى امور حياته والأسباب التى قد تؤدى به الى المكانة العليا
فى المجتمع ولكن لم يحصل على شئ ولهذه الإثناء أقامت لجنة حكومية فى فرنسا
معرضا وطلبت منه أن يشارك فيه ويعرض رسومه فأعجب بذلك إشد
إعجاب لهذا سمع أن الرسام الشهير (رودان) سيشارك فى المعرض
فقد يكون له الفرصة أن يلتقى به ويعرف اراءه عن رسومه . فلما انعقد
المعرض تلقى جبران قبولا واسعا من مختلف الأطراف وخاصة من رودان
وقد تعرف بواسطة على وليم بلايك وازداد إشتياقه الى ان يعرف
بالتفصيل من هو هذا الرجل الشهير فاشترى كتابا عن حياته وغرق فى دراسته
حتى قال سبحان ربى الذى قادنى اليوم الى رودين ليقودنى رودان الى بلايك
وبعد ذلك بذل جبران جهودا مكثفة حتى ينال المرتبة التى كانت رودان وليم بلايك

بجمالها وهناك وصل الى ذالك المكان ولقدر لفنه جعل عضوا لجمعية الفنون الجميلة .

بقي جبران ثلاثة اعوام في باريس وخلال هذه الفترة لعله تعلم شيئا من الفرنسية ولما اكملت المرحلة التعليمية في فرنسا عاد منها الى بوسطن في عام ١٩١٠م ولبعد العودة لم يزل يفكر في امور كثيرة منها من اين شيأ أتى لقمة العيش وكيف يكون له من الممكن أن يعبر عما يجيش في طيه من العواطف و الأفكار حول هذه الحياة والإنسان وهل سيتمكن من إنقاذ ابنته مريانه من مهنة الخياطة وقد ساعد باب العون الذي كان يحصل عليه من السيدة ماري هاسكل وهل سيتمكن من كسب المال يغنيه من الآخرين ويقضي حياة سعيدة متوسطة معتزلا عن الأمور الدنيوية منشغلا في الكتابة والرسالة وكانت العودة من باريس شاقة على نفسه جدا وكان يتذكره بمرارة وبعد التفكير الكثير ترك بوسطن وغادر الى نيويورك وأقام في حي غرينيتش الفنانين وسمي بيته "الصومعة" وكان بيته في الطبق العلوي وكانت غرفته مزودة بالصور الكثيرة معلقة على الجدران ومن بينها كان إطار كبير يحمل على صورة السيد عيسى .

وأثرت الحرب العالمية الاولى على نفسه تاثيرا كبيرا إذ اجتمع عنده الفقر والمصيبة وقلة رواج كتبه التي ألفها باللغة العربية حتى ذالك الحين ولكنه منذ عام ١٩٢٠م وبعد أن تأسست الرابطة القلمية إلتف إلى

باللغة الإنكليزية و بنجاح مزيد فقد فتن الأمير يكيون لمؤلفاته وعلى رأسها "النبي" الذي بيع منه الى اليوم أكثر من النسخ . و لجبران الفضل كل الفضل في تأسيس "الرابطة القلمية" بنيويورك فقد كان الروح التي تعمل بين ارواح عمالها و أنصارها هي اختاره و عميدها ولا شك أن لحركة التجديد في الأدب العربي و حركة الحملة على القديم و حركة التحرر من قيود الاساليب و الوزن بل التفكير لنفسه استقلال فوزنه باسم جبران على مدى الأباء والأزمان

ومات جبران مهاجرا في ابريل سنة 1921 بالهدى ـ نيويورك و في اغسطس من السنة نفسها نقل جثمانه الى لبنان حيث يتبع في موكب رهيب الى بلدته "بشري" وهناك دفن في ثرى الأرض علة

من آثاره العربية ١ - الموسيقى ٢ - عرائس المروج

٣ - الأرواح المتمردة ٤ - دمعة وابتسامة

٥ - الالهة المنكسرة ٦ - الكواكب والمواكب

٧ - العواصف ٨ - البدائع والطرائف

آثاره الانكليزية التي تم تعريبها ١ - المجنون ٢ - السابق ٣ - النبي

٤ - رمل وزبد ٥ - يسوع ابن الإنسان ٦ - آلهة الأرض

٧ - التائه ٨ - هديبة النبي .

علة الشعر العربي في المهجر محمد عبد الغني حسن ص ٢١٤

العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية جبران

ليفيدنا تحليل شخصية اديب مفكر، شاعر او مصلح وقائد، فان تكون دائماً وراء هذا بعض العوامل التي ساعدت او لعبت دوراً فعالاً في تكوينها ولولا هذا لما ظهرت تلك الشخصية في العالم. وهكذا أمر جبران الشاعر والأديب والفنان العظيم لم يصل إلى ما وصل إلى في يوم ولم يولد اديباً وشاعراً بل ولد كما يولد الآخرون ولكن بمواهب منفردة ولربما استثنائية فغذتها الطبيعة وطورتها أيدٍ وبلغت ذروتها بمساعدة العوامل العديدة. ولا شك فيه ان مثل هذه الشخصيات العبقرية الفذة تظهر دائماً لإحداث ما انشدته الظروف واعطاء العلوم والفنون شيئاً ولا يأخذ منها شيئاً وتتكون تلك المجالات التي تخوض غمارها هذه الشخصيات بتأثيرها. يمكن لنا ان نضرب مثال لذلك بالسيد ابو الكلام آزاد. الخطيب البارع والأديب الفذ فاللغة الاردية مدينة له. وليس هو بحاجة الى اللغة الاردية، وهكذا جبران فجبران... واحد امن اللغة العربية من النواحي العديدة واخترع لنفسه اسلوباً رائعاً يسمى بالأسلوب الجبراني... وحرر اللغة من القيود واعطاه شيئاً جديداً من السهولة والبيان... والأكثر من ذلك استخدام اللغة كوسيلة رسالة السامية حاول نسبته إلى كافة الناس والآن لعدد من ادباء العالم العديدين. فلا بد من استعراض العوامل التي ساعدت في تكوين الشخصية الجبرانية.

ولا يختلف عنه اثنان أن اول مدرسة تلقى فيها كل الإنسان دروسه هي الأم - وانها هي اول من بين الجميع التي ساعدت بل طورت جبران لولا كانت اعتزامها على الهجرة من لبنان إلى امريكا. لا يمكن ان نتصور هل يصل جبران إلى ما وصل اليه من المرتبة اليوم وذلك بالرغم من معارضة زوجها لعقدة الفكرة. وكما هو معلوم ان اسرته هذه كانت فقيرة لا تكاد تسد حاجاتها لكن الأم ادخلت ابنها في مدرسة للتعليم والتعلم وتحملت كل المشاقات في سبيل تعليمه ولا يمكن ان ننسى تضحيات اهمته واخيه حيث كانوا يحلمون ويكتبون لفمه العيش. وكان هو يدرس

ثانيا نرى إمرأة أخرى تعرف عليها جبران في بوسطن في اولى معارضه فأحبته رسومه ودعته إلى مدرسة البنات التي كانت تديرها لاعارة لعرض ثم انفقت معلمات الصداقة بينها وهي المرأة الحسيب ان يتعلم جبران الفن وارسلته إلى باريس على نفقتها. وكانت ترسل اليه معونتها إلى ان اكمل تعليمه في باريس ثم باشر عمله الكتابي بالرسالة وبدأت تحاول كتب الأدباء. وهذا الحرف بذلك جبران في مختلف الأماكن. وهذه هي المرة التي سمحت له ان يتعرف روداني. الفنان الشهير ثم وليم بلومك.. وتعرف على كبار الشخصيات واهل العلم في باريس وتعلم بالتعلم في نال مرتبة عالية في الفن والعلم.

إمتزاج الثقافات: ولعل ابرز العوامل التي جعلت جبران اديبا شاعرا ومفكرا هي امتزاج الثقافات الشرقية والغربية فجاء جبران حاملا

على الروحانية الشرقية فنبعث احيانا الحضارة المادية الغربية ولكن بدلا
ان تلقى نفسها في احضان هذه الدنيا الجديدة . واستفادت من منابع علمية
استثمار ثقافته ذهنه وزود نفسه لكل ما يحتاج اليه المرء من الأسلحة للدفاع
عن نفسه و التغلب على خصمه . ونرى في التاريخ انه كلما امتزجت الثقافات
والحضارات تظهر منها ثقافة جديدة متقدمة . وعلى سبيل المثال لما ان استقرت
الدولة العربية في العالم العربي وامتزجت الثقافات العديدة الايرانية
والهندية والرومية و البابلية فنشأت هذه كلها الثقافة الإسلامية
العربية في العصر العباسي بسبب هذا الامتزاج . ونرى في تاريخ الاندلس
ظهور نوع جديد من الشعر لم يراه التاريخ العربي والذي يعرف بـ الموشحات .

كما اننا نرى في التاريخ العربي المعاصر نوعا جديدا من الأدب العربي يسمى
بـ " الأدب المهجري " الذي اطلع العالم العربي على الثقافات والآداب العالمية
عن طريق الترجمة وغيرها و لا يزال كتاب جبران خليل جبران يقابل بنهمة الرجال ليدرسوا
فيه لمقاييس النقد . هكذا نرى جبران انه شرب من الثقافة الغربية
في الشمالة وغلبه معمور بالثقافة الشرقية والرومانسية . ومنح العالم
رسالة ان هناك شبابا يستحق ان يبذل الانسان طهوره في سبيله
وكتب "النبي" والذي اشتهر العالم العربي اكبر هدية من الشرق إلى الغرب
وكان هذا انتاج اديب استفاد من الثقافتين الشرقية والغربية .

الباب الثانى

الفصل الاوّل: النزعة الإنسانية فى العصر الجاهلى

الفصل الثانى: النزعة الانسانية فى العصر الأموى والإسلامى

الفصل الثالث: النزعة الانسانية فى العصر العباسى

الفصل الرابع: العصر منذ عام ١٢٥٨ إلى عام ١٧٩٨

الفصل الخامس: النزعة الإنسانيه فى الأدب الحديث

النزعة الانسانية في العصر الجاهلي

كان النظام القبلي يسود في العرب قبل مجيء الإسلام ومن طبيعة هذا النظام أن شيخ القبيلة يتمتع بصلاحيات وقدرات غير محدودة في القبيلة ويكون أمره واجب الطاعة فهو سيد القبيلة وقائدها في السلم والحرب. والميزة الكبرى لهذا النظام انه يعتمد تماماً على التعصب القبلي. فيكون حياتهم ومماتهم للدفاع عن مصالح القبيلة والسعي من أجل تطورها وتفوقها على غيرها والحصول على المجد والشرف ومن ثم كانوا يخوضون في الحرب لأمور تافهة بين حين وآخر وكادوا يهلكون الغشم فيما. وكانت نظرتهم «انصر أخاك ظالماً او مظلوماً» ويدل ذلك شعر شاعر جاهلي:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ← غويت وإن ترشد غزية أرشد

وبما انهم كانوا يقضون حياة قبلية فيتمتعون بكل انواع الحريات في حياتهم مثل حرية الرأي والتعبير والاستيطان في مكان ما. وما كان يربطهم أي نظام سياسي وسلمي او اجتماعي إلا انهم كانوا يحترمون بيت الله ويأتون للحج من كل انحاء العرب ويجتنبون عن الحرب والفساد في هذا الزمن. فكانوا يقصدون الأسواق ويقيمون فيها مختلف انواع النشاطات الاقتصادية والتجارية والثقافية. كما انهم كانوا يستخدمون هذه المواسم لعقد الصلح بين القبيلتين المتحاربتين وكانت هذه هي حياتهم كلها. وأما آثارهم التي وصلت أيدينا إليها فهي الاشعار والخطب والأمثال

وما إلى ذلك . والتي دونت فيما بعد ولم تقتصر على كتاب كتب في هذا العصر

والسبب في ذلك أن العرب كانوا يعتبرون الكتابة إهانة لمذاكرتهم . وأما موضوعات

تلك الإشعار فهي المدح والثناء والرثاء والتصوير عن الطبيعة والتغني بحب المرأة وجمالها .

وأما البحث عن مفهوم الإنسانية ومظاهرها في هذا العصر فيتطلب النظر في

أغراض الشعر وإلقاء الخطب وترويج المثل والحكم فلا يمكن أن نتصور عن شاعر جاهلي

أن يتناول الموضوع السامي الإنسانية لأنه يمثل عصر الأمية ولا يمكن لهم أن يصلوا

بالشعوب والأمم الأخرى ولكن نتتبع هذه الآثار سيمكننا من استنتاج مفهوم الإنسانية

ونزعتها لدى العرب الجاهليين وهي أنهم كانوا يرون الكرامة البشرية والحمية القبلية

والجود والسخاء وإجارة المضطر وإعانة المظلوم وإيواء اللهوف واستضافة الناس

والتجافي عن الدنيء من أعلى مدارج الإنسانية وينبغي لكل طامح أن يطمح إليها .

كما كانوا يعتقدون بأن هذه حياة قصيرة وهناك حياة أخرى لابد للمرء

فيها الإنسان أن يعمل على نجاته تلك الحياة . ولنورد هنا بعض الأمثلة ليتضح

الأمر .

الكرامة البشرية : يحكى أن عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر

قال لأصحابه . أتعلمون أحرًا من العرب تأنف أمه من خدمته أمي . فقالوا

لا نعلمها إلا ليلى أم عمرو بن كلثوم فإن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب بن

وائل ، وبعلها كلثوم بن عتاب فارس العرب وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه .

فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله ان يزيد أمه أمه.

فأقبل عمرو بن كلثوم وأمه من الجزيرة في جماعة من تغلب. وأمر الملك برواقه فضرب

ما بين الحيرة والزاوية. وأرسل إلى وجوه مملكته فحضروا وكان عمرو بن هند

قد أعزى أمه ان تستخدم ليلى بنت مهلهل في قضاء أمر. فلما دخلت عليها الرواق

والهمات بها المجلس، قالت لها ناولينى الطبق. فأجابتها. لتقم صاحبة الحاجة

إلى حاجتها. فلما التحت صاحت ليلى: واذلاه! فسمعها ولدها فثار به الغضب

وقتل بن هند في مجلسه ثم عاد لوقته إلى الجزيرة فأنشد قصيدته المعلقة

واستهلها بذكر الخمر والغزل ثم وصف فيها مع عمرو بن هند، وإنتحز بنفسه

وقومه. ولقد تجاوبتها الجامع وتناقلتها الألسنة والكتب فتغلب من إنشادها

ورواياتها ومن معلقته:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضاً ... ونصدرهن حمراً قد روينا

اذا ما الملك سام الناس خسفا ... أبينا ان نقر الخسف فينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

اذا بلغ الفطام لنا صبي ... تخر له الجبابر ساجدينا (١)

---

(١) تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات (ص ٢٢ - ٢٥).

لهذا ما يدل على أن العرب كانوا شجاعاً وقلوبهم مملوءة بالغيرة والحمية والكرامة البشرية. وما كان شيئ أعز وأشق على النفس من تعرض كرامتهم وعرضهم للذل والهوان فالكرامة ألذ شيئاً لديهم وليقول لسان ابن ثابت: (١)

أهون عرضي بمال لا أدانسه ÷ لا بارك الله بعد العرض في المال

اما الجود والسخاء واستضافة الضيوف فكانت تعتبر من خير الأمور وكانوا يفتخرون بهذه الخصلة وتكاد تمتلأ اشعارهم من الافتخار بها. وقال المقنع الكندي

يا ابنتي في الدين قوي وانما ÷ ديلوني في أشياء تكسبهم حمدا

أستر بها ما قد أخلو أو ضيعوا ÷ ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا

وفي فضة ما يغلق الباب دونها ÷ بكلة لحام دفقه مشردا

وفي فرس لهد عتيق جعلته ÷ حجابا لبيتي ثم أخدمته عبدا (٢)

ويقال ان الشعراء كانوا يستخدمون الشعر لإشعال نار الحرب والشاعر الجنوبي في الحرب ولكن نرى لوامع أخرى تنطوي على عواطف الشاعر الانسانية ورقة قلبه على سوء الحالة الاجتماعية ويحكى ان شنفرا بدوي محلق من قبيلة كلاب كان له ثمانية بنات وكان الرجل يعاني من بؤس وفقر ولا يكاد يزوج بناته. ومن لطف المروأة ترداد يوم الشاعر الكبير الاعشى في طريقه إلى مكة المكرمة وعندما علمت زوجته فأرسلت زوجها ليدعوه إلى الطعام وذبح له ناقته واعدة له طعاما شهيا وبالغت في استضافته واطعامه ولما مضت بعض الليلة وسكر الشاعر بدأ يثير الحزن فسأل عن احوال

---

(١) ديوان الحماسة (ج ٢ - ص ٢٠٠)

(٢) نفس المصدر (ج ٢ - ص ٢٨)

الأسرة وأولاده فحينئذ قصّ عليه الرجل قصته لعدم زواج بناته لسبب سوء حالته وفقره. فتأثر الشاعر لهذا الوضع وسارع إلى سوق الحكاظ فعرض قصيدته مطلعها:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ـ وما بي من سقم وما بي عشق

ثم انتقلت الشاعر إلى امور أخرى ثم مدح الجود وسخاء خلق وقال،

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ـ إلى ضوء نار في اليفاع تحرق

تشبّ لمقرورين يصطليانها ـ وبات على النار الندى والخلق

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ـ بأسحم داج عوض لا نتفرق

وفي التاريخ العربي انه لما انتهى الشاعر من قصيدته في مدح الخلق انقض الناس من الوجهاء والأغنياء يخطبون لبناته وفي غضون اسبوع فحسب تم زواج ثمانية بناته من النبلاء والأغنياء (١). فهذه الحكاية تدل على مدى تأثير الشاعر في العصر الجاهلي من جانب والحب الانساني ومساعدة شاعر لرجل فقير من جانب آخر.

واما التأمل في الحياة البشرية وحثهم على الأمور الخيرية والمسارعة إلى الأمور المعروف وتكريم البشرية وتجعل الإنسان إنسانا فلنسمع ذلك في أبيات الشاعر الحكيم زهير ابن سلمى ويمدح الصلح الذي أقيم بين القبيلتين.

تداركتما عبسا وذبيان بعدما ـ تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما ان نذرك السلم واسعا ـ بمال ومعروف من الأمر نسلم

---

(١) تاريخ الأدب العربي باللغة الأردية، لعبد الحليم الندوي (مخطوط ج ١ - ص ١٢٤ - ١٢٥)

فأصبحنا على خير موطن ـــ لعبد بن فيهما من عقوق ومأثم

عظيمين في عليا معد تعديتا ـــ ومن يستبح كنزًا من المجد يعظم

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ـــ وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ـــ وتضرا إذا ضريتموها فتضرم

وقد قال في أمور أخرى للحياة.

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ـــ ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

رأيت سفاه الشيخ لا حلم بعده ـــ وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ـــ ولكنني عن علم ما في غد عمي

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ـــ ليضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ـــ على قومه يستغن عنه ويذمم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ـــ يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

ومن يجعل المعروف في غير أهله ـــ يجد حمده ذما عليه ويندم

ومن يغترب يحسب عدوا أهدله ـــ ومن لا يكرم نفسه لم يكرم

وهما نحن ما في منذر من خليقة ـــ وإن خالها تخفى على الناس تعلم (1)

وخلاصة القول أننا إذا تتبعنا تاريخ العرب وأشعارهم وكل ما أثر عنهم نجد أنهم كانوا يمجدون بعض الخصائل ويقيسون عليها ليضعوا القيم وراء ذلك وليحذروا بها وهي الجود والسخاء والاستضافة وإجارة المستأجر والمستأمن والدفاع عنه

---

(1) جمهرة أشعار العرب (ص ٢٠٨ - ٢١١)

وإيفاء العهود والمحافظة على العرض والكرامة البشرية واعانة المظلوم واليأس الفقير. وهذه هي بعض الامور التي تمثل النزعة الانسانية في تصورهم واعتقادهم.

النزعة الانسانية في العصر الاسلامي والأموي

يعتبر ظهور الاسلام في العرب منعطفا في تاريخ العالم وبخاصة في تاريخ الاسلامي اذ انه وحد صفوف القبائل واخرجهم من الظلمات إلى النور واعطاهم تصورا لحياة ومعناها. فالاسلام معتمد على ثلاث قواعد هامة: الايمان بالله وبالرسل واليوم الآخر. والإنسان في هذه الدنيا مخلوق من الله سبحانه وتعالى والدنيا هي مزرعة للآخرة. وليس على الانسان إلا أن يعمل لنجاحه في الآخرة وقد أرسل الله تعالى انبياء ورسلا ليبلغوا رسالات ربه إلى عباده، فالانسان عبد الله تعالى وكل شيء مسخر لخدمة البشرية والانسان لا فرق بين انسان وانسان بل هم أولاد من أب وام واحدة. فلا يجوز للانسان ان يجعل اوليس او ليفرق بين انسان وانسان على اي أساس: اللغة والقبيلة والوطن والنسل وما إلى ذلك، ولذا يخاطب الله تعالى الناس اجمعين يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم [1] ولا تكون الأفضلية لأحد عند الله إلا من يكثر من اعمال الصالحات وهكذا ازال القرآن الكريم كل الفوارق البشرية وأعطا مبدأ واحدا ان اصل

---

[1] الحجرات - ١٣ -

الانسان واحد وهو من أب واحد وأم واحدة. وحرم على الناس ان يقتل أحدٌ أحدًا فيقول: "من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا"(١) هذا منع الناس من القتل والحرب والمحاربة وأرسى في نفوسهم قواعد المحبة والسلام والأمن لدفيه الانسان. وحتى امنع من ان يظلم أحد على عدوه بل عليه ان يتمسك بالعدل والانصاف فقال "لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى"(٢) وقد صرح نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلعم: يا ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. اكرمكم عند الله أتقاكم. الله عليم خبير. وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى(٣) كما ان الإسلام منع قتل الاولاد من خشية الإملاق وعده من اكبر الكبرى فقد قال عز وجل "لا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياكم(٤) وكما ان القرآن لدد الناس من لغبة وأد البنات قائلا: وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت(٥) وقد أراد القرآن أن يقيم مجتمعا يحترم الانسان بأنه إنسان اذا يتمسك بتعاليمه. وإلا سيفقد انسانيته ويصبح حيوانا ذي أربع أرجل. ولذا منح الناس خيارا كاملا أن يتزوجوا الفهم بمن يحبهم من النساء وكذا للنساء ان يتزوجن من يحببهم وحتى لبد النكاح اذا لم يجد من الممكن العيش معا في سار الحياة بالمحبة والتراضي فعلى الطرفين ان ينفصل كل

---

(١) القرآن الكريم. (٢) تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي - د. شوقي ضيف ص ١١٨

(٣) الحجرات (١٣) (٤) القرآن - (٥) التكوير (٨)

من الآخر. فقد صرح القرآن فإن آنستم ... لشوزاً ... ٥ . كما ان القرآن صرح للنساء والرجال أن لكل جزاء شاء اذا فعلوا من الخيرات فقد قال: « ومن يعمل منكم من الصالحات من ذكر او انثى .. . وقد حدد القرآن نصيباً خاصاً للنساء في الميراث » وللنساء نصيب مما ترك الوالدان — وقد نصح النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء الخير في آخر خطبة القاها امام الجماهير . يا ايها الناس ان لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ولكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا باذنكم ولا يأتين بفاحشة مبينة، فان فعلن فان الله قد اذن لكم ان تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فان انتهين واطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وانما النساء عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء — واستوصوا بهن خيراً (١) كما ان الرسول قال رفقاً بالقوارير. وكذا علم الانسان أن يحب لأخيه ويختار له ما يحب لنفسه ويراعي الفقراء والمساكين واليتامى ويحسن في الله فلا يجوز في نظر القرآن ان يحتقر المرء لهذه الطبقة المحرومة من تسهيلات الحياة من بسبب او آخر وقد قال "وأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر (٢) وقال" (٣) وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم اموالهم ولا تأكلوها اسرافاً وبداراً

---

(١) تاريخ الأدب العربي (ج ٢ - ص ١١٨) (٢) الضحى - ٩ - (٣)

أن يكبروا . ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف .(1)

ومن القضايا الانسانية العامة هل يجوز للانسان ان يسترق الناس مثلهم فقد حرم ذلك القرآن ان يسترق انسان انسانا حرا وحاول تقليل هذه العملية السائدة في ذلك الوقت ولا يمنع استرقاق عامة الناس إلا من أخذ في الحرب وثانيا فتح ابوابا كثيرة لفك رقابهم وجعل تحريرهم من افضل الأعمال الصالحة . بل في بعض الاحيان جعل عتق رقبة (2) ان يفك المرء عاتقها .

وبالنسبة للحرية الدينية فقد اعلن القرآن مبدأ خاصا لهذا الصدد انه "لا إكراه في الدين" . ولو شاء الله عزوجل ان يكون جميع الناس على دين واحد لخلقهم على دين واحد فليس يشق عليه ان فعل . ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (3) فليس هناك أي إكراه في الدين الإسلامي فمن شاء ورغب في الدين الإسلامي يعتنقه ومن يبتغي غير ذلك مفوض .

واما حرية التعبير التي تعتبر من أهم حقوق الانسان ومن سلب منه هذه الحرية فلم يبق له في الحياة شيء ، اذ ان الفرق بين الانسان والحيوان انه حيوان ناطق والآخر غير ناطق ، فكأنه وضع في محل الحيوانات فلذا نجح الإسلام حرية تامة في التعبير عن الرأي حتى ان الرسول صلعم قال :

---

(1) النساء ٤ - ٦ (2) البقرة (٢٥٦) (3) القرآن .

"أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر أو جابر" والتاريخ الإسلامي. والتاريخ الإسلامي غاص بالشواهد التي تدل أن الأمة وافراد منها مارسوا هذا الحق بصورة جيدة. فنرى إن الخليفة المؤمنين ترتعد منه الروم ولا تخاف منه مجوز بل تمسك بيده وتوقفه في وسط الطريق وتسأل وتستفسر عما تشاء، وتشكو له الخليفة.

.. وخلاصة القول ان الدين الإسلامي الحنيف هو الذي يبني على الرقي الإنساني المتوازن ولن تجد الإنسانية مثل هذه التعاليم العادلة في مكان ما، ويكون من الأحسن ان نثبت ما كتب د.. شوقي ضيف حول القيم الإنسانية في الإسلام الذي يبين لنا كيف ان الإسلام في هذا المجال. فالإسلام دين سلام للبشرية يريد ان ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة ومن ثمة ذلك ما وضعه من قوانين في معاملة الأمم المغلوبة سلماً وحرباً. فقد اوجب الرسول ﷺ على المسلمين في حروبهم ان لا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا إمرأة وعهد الخلفاء الراشدين بجزء من اروع الأمثلة على حسن المعاملة لأهل الذمة، فقد أمروا ان لا تمس كنائسهم ومعابدهم وان تترك لهم الحرية في ممارسة عباداتهم... وحض الخلفاء الراشدون من بعده ليقتدون به في معاملة أهل الذمة تقوم على البر بهم والعطف عليهم،

.. ومن غير ما تصور دهذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه انه اعطاهم أمانا لانفسهم واموالهم وكنائسهم وصلبانهم... لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شئ من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم وكان هذا العهد إماما لكل العهود عقدت مع لصارى الشام وغيرهم.

والحق ان تغالبي ابن سلام السمعة لا السيف هي التي فتحت الشام وحصر إلى اندلس والعراق إلى فارسان والهند، فقد كفل الناس حرية دينهم لا لأتباعه وحدهم بل لكل من عاشوا في ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكانت أرادوا وحدة النوع الانساني وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام[1]

ومن النماذج الانسانية الحق ما أوصى به ابو بكر الصديق قبل ارسل اسامة بن زيد إلى مشارف الشام وفيها يقول: ايها الناس! قفوا اوصيكم بعشر فاحفظوها عني. لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا او لا إمرأة ولا تقطعوا نخلا، ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لما كلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له[2]

هذه هي النزعة الانسانية وتصور الانسانية التي كانت تسود في العصر الاسلامي وما يثبته القرآن الكريم والرسول العربي.

---

① تاريخ الأدب العربي (ج ٢، ص ٣٣ - ٣٤) د. شوقي ضيف

② نفس المصدر (ج ٢ - ص ١٤٤)

العصر الأموي

يعتبر العصر الأموي منعطفا آخر في التاريخ الإسلامي حيث يبدأ منه النظام الملكي الوراثي فكان الملك يسمى الخليفة ويساعده وزراءه المشتاة ويحكم مختلف الولايات بواسطة الولاة الذين كان ينتخبهم ممن يشاء فما كان شئ يمنعه او يقيد يديه إلا الشريعة الإسلامية وما كان أحد فوقه إلا القضاة ويتميز العصر الأموي باتساع نطاق الرقعة الإسلامية من ايران الى الهند والى الهند والصين ومن الشام الى اخر ليبيا والاندلس وكأنه سيل إسلامي يقتحم بلداً الى بلد بدون أي مانع.

وشئ آخر يعود الفضل في ذلك الى الخلفاء الأمويين أنهم جعلوا اللغة العربية لغة رسمية ولهذا ما جعل الناس يهتمون بتعلم اللغة العربية إذ انها كانت لغة الدين الإسلامي الحنيف ولغة الأمة المنتصرة التي كانت تحكم مختلف الشعوب والأمم ومن طبيعة البشر أنه يحاول كسب المكانة والثروة بكل سبيل يهديه الى ذلك فلم ترى هذه الأمم بابا إلا أن يتعلموا اللغة الأم المنتصرة وتتقنوا فيها لكي ينالوا وظائف حكومية والمراتب الاجتماعية وكأن الامويين كانوا شديد الحرص على محافظة اللغة العربية وإبقاء الحكم على العرب. كما كانوا لا يحبون أن يشارك في الحكم أحد من الأعاجم إلا في الوظائف الكتابية والأمور التافهة ولكن الإسلام دين يرى الناس بنظرة مساوية ومقاييس الشرف والفضيلة لدى هذا الدين التقوى وليس النسل والوطن واللون فاعتنق الناس بالإسلام أفواجا

وسارعوا الى الحصول على مهارة في الدين فبدأ امتزاج الثقافات والحضارات

وبدأت حركة الترجمة ايضا ويقال إن خالد بن وليد من الأسرة الملكية كان

شديد الرغبة في العلوم الأجنبية وبخاصة في الكيميا فترجم له بعض الأشياء

الى العربية ولكن لقدر ضئيل فحسب وذلك المقدار أيضا لا يوثر لدى التاريخ.

أما الكتب الدينية والأدبية الأخرى فنرى بعض الإهتمام بهذه

الامور في ذلك العصر حيث أمر الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز بجمع أحاديث

الرسول ولكن لم نجد أي كتاب هام كتب في هذا العصر وأما الأشعار التي

عرضت في هذا العصر فهو مثير جدا من الناحية اللغوية وكان الشعر على نفس

المنوال كما كان في العصر الجاهلي وكذا نشأت الخطبة والخطابة السياسية

والدينية والملفت للنظر في هذا كله أن نوع الهجاء من الشعر تطور تطورا

بالغا الذي سمي في التاريخ العربي الأدبي بـ "النقائض" وأبطالها جرير

والفرزدق والأخطل وهي عبارة عن الهجاء الفاحش فكان الشعراء

يتفاخرون بمجدهم ونسبهم وشرفهم ويتطاولون في ذلك ويذمون الطرف

الآخر بما يكون فيه من نقائص تحط من قدره في اعين الناس وقد قال

أنيس المقدسي حول هذه المهارسات "انك لترى اكثر الهجاء العربي من قبيل

الطعن الشخصي الذي يراد به الحط من كرامة الشخص او كرامة أهله، لا لقصد

إصلاح بل تشفيا او تفاخرا هكذا كانت نقائض جرير والأخطل والفرزدق

وعلى هذا النمط جرى أكثر الهجائيين عند العرب على ما ذا كان الأمر كذالك فالبحث عن النزعة الإنسانية في هذه الأشعار بدون طائل ولكن القيم البشرية او الإنسانية لا تزال تسود في المجتمع ولو تغلب عليها امور اخرى مثل الجود والسخاء والإيفاء بالعهود والإستضافة ومحافظة الكرامة والعرض والأمن والسلام للمجتمع ولعل اندلاع الحرب داخل الدولة الإسلامية واهراق الدماء بايدي بعضهم بعضا هذا مادفع الناس الى قبول النظام الملكي والحكم الوراثي وخاصة من قبل العلماء والصلحاء والنفور ضد النظام الاموي ليس لشيء غريب ولكن كبحه الطبقة الحاكمة بالقوة .

والشئ الثاني الذي تطور تطوراً واسعا في هذا العصر الاموي هو الخطابة فبرز الخطباء أنواعا من السياسيين والوعاظ والقصاص وأما الموضوعات التي تناولت هذه الخطابات في هذا العصر فهي حق الخلافة هل هو حق ديني لأسرة من الأسر أو حق عام للجميع كما أنهم استخدموا هذا الفن لتخويف الناس وإخضاعهم الى الطاعة والإنقياد للحكام وكذالك من الموضوعات الدينية التمسك بالدين وقيمه وفوائده وأنظمته والدنيا هي مزرعة الآخرة فليس للبشر أن يطمح منها إلا مايقيم به أوده فأما النوع الأول فخطبة عبد الله بن عبد الله المري

عله أمراء الشعر العباسي . انيس المقدسي ص ٣٩٠

هل خلق ربكم فالأولين والآخرين اعظم حقا على هذه الأمة من نبيها؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين اوعترهم اعظم حقا على هذه الأمة من ذرية رسولها؟ لا والله ما كان ولا يكون ألم تروا ويبلغكم ما احترم الى ابن بنت نبيكم وترمبلهم إياه بالدم وتجاوزه على الأرض؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلعم ابن اول المسلمين إسلاما وابن بنت رسول رب العلمين، فتله عدوه وفعل له ولبعه فويل للقاتل وملامة للخاذل إلا أن يتاح لله في التوبة فينجاهد القاتلين ويمن الله أن يقبل التوبة ويقيل العثرة .... إنا نزعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته والى جهاد المحلين والمارقين عنه

وكما ان معروف خطبة الحجاج بن يوسف وابن ابي زياد ولا حاجة الى اثباته هنا بسبب شيوعها شيوعا واسعا،

أما الخطابة الدينية فمازوع مثال لذلك من البصرة ومثل في خطبة له "رحم الله امرءا كسب طيبا وانفق قصدا وقدم فضلا واجملوا لهذه القلوب حبيث وجهها الله وضعوها حيث امر الله، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالقليل ألا إن لهذا الموت قد أضر بالدنيا فضضها فلا والله ما وجد ذو لب فيها فرحا، واياكم لهذه السبل المنفرة التي جماعها الضلالة وميعادها النار ادركت من صور لهذه الأمة فيما كانوا اذا أجنهم الليل مشيام من أكمامهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم

على تاريخ الأدب العربي، لشوقي ضيف ج ٢/ ص ٤١٦

على ظهورهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم يا بن آدم إن كان لا يغنيك ما يكفيك

فليس هناشئ يغنيك و إن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك عنه

فهذه الخطب و مثلها تدل بوضوح تام ان كل ما يهم هذا العصر هو اما المنافسة لحوز

الخلافة او تمهيدا لطريق للحكم الملكي فيما بين الناس وكذا حث الناس على ترك الدنيا

و رغائبها والتذكر بالموت والآخرة و اعداد نفسه للبوم الحساب ، عن طريق تأدية حقوق

الله و حقوق العباد و أما الموضوعات التي تناقش ماهو الإنسان ما حقوقه من حيث

الإنسان بدون اى تمييز على الدين والنسل واللون والوسط معدومة ولكن بالرغم من

ذالك كان عامة الناس وحتى الحكام والامراء يرون التعاليم الإسلامية ذات

النزعة الإنسانية اكمل نموذج لأنفسهم وكان الناس يلتزمون بكل المحامد و

الأخلاق الإنسانية ويتجلون بها انفسهم بل كان أشرفهم وانبلهم من كان أكثرهم

عندالله ولودى حقوق العباد و حقوق الله .

على نفس المصدر ج ٢ / ص ٤٥٠

النزعة الانسانية في العصر العباسي

ان العصر العباسي يسمى بالعصر الذهبي للإسلام. فما هو السبب في ذلك؟ ونظرة عابرة إلى هذا العصر يبين لنا انه حافل بنظرات علمية عامة في مختلف المجالات وبتعبير صحيح انه وريث لجميع الحضارات والثقافات التي ظهرت في العصور الغابرة. فجاءت الحضارة العربية الإسلامية لتحتضن أسس ما كانت تتواجد في العالم في ذلك الوقت، وبدأ التفاعل الحضاري بالرجوع إلى العربية ونرى في هذا العصر أن الخلفاء يهتمون بترجمة جميع الكتب الأجنبية العربية وما إن عثر الخلفاء على لؤلؤ علمي إلا سعوا الحصول عليه وهذا هو الحرص على العلم والمعرفة الذي دفعهم إلى فتح أبواب الخزينة لمن يترجم كتابا يستحق بالاهتمام والتقدير فكان يكيل كتابه بالذهب والدينار، فكان التشجيع من الدولة دافعا إلى إنشاء ديوان الترجمة وكان من بين المترجمين الفارسيين واليونانيين والهنود ومن كل اللغات الأجنبية المعاصرة في ذلك الوقت. ثم يأتي بعد ذلك عصر التدقيق والتمحيص والتعميق والزيادة في ذلك. فهكذا انكبوا على علوم الأقدمين من علوم السياسة والفلسفة والمنطق وعلم الكلام والطب والهندسة وما إلى ذلك وتأثر جيل بعقب ليعده الثقافات وبدأوا يضيفون في هذه العلوم فاذا نرى تطور الطب والحكمة وما إلى ذلك وهذا أثرت هذه العلوم والفنون في انفجار علمي في هذا العصر حتى ان المسلمين دونوا علومهم ومعارفهم

على طراز العلوم الأجنبية مستفيدين منها، فجاء علم التفسير وعلم الحديث وفروعه وعلم الفقه ومختلف المذاهب الفقهية ولذا نرى كبار علماء الحديث مثل الامام البخاري والامام المسلم، والبو داؤد والترمذي والنسائي، والامام احمد بن حنبل كلهم ينتمون إلى هذا العصر، وكما نرى المفسرين الكبار، الامام الطبري والرازي والكشاف في هذا العصر وكلما تفتح بابا من ابواب العلم تجد العالم الفذ في هذا العصر سواء كان العلم الاجتماعي والديني. واما الأدب العربي وتطوره فهو من اخصب العصور مدونت فيه علم النحو والصرف وعلم البلاغة وعلم المعاني والنقد وما إلى ذلك. وتجد شعراء وادباء بارزين لا مثيل لهم في الأدب العربي إلا في العصر الجاهلي. فكل التطورات العلمية والثقافية والأدبية تدين لهذا العصر الذهبي للإسلام ولسنا بحاجة إلى سرد جماعة العلماء من كل الفنون والعلوم، بل نبحث في النزعة الإنسانية وتطورها وكانتها في الأدب العربي. ولا يمكن التوصل إلى نتائج مشهودة إذا لم نعلم أولا ان الزمان الذي نتحدث عنه ان يسود فيه النظام الملكي وما كان الناس يعرفون غير ذلك من النظم السياسية لتدبير شؤون الدولة فيكون الملك فيه رئيس الدولة وكل ما يتلفظ به يعتبر بمثابة القانون والحواشي والوزراء لا يكونوا إلا مثل تعرف بالبصم. وهكذا كان النظام في العصر العباسي إلا ان الدين الإسلامي دائما يحول دون الملك ان يصبح ملكا مستبدا او وما تكون الشريعة في المرتبة الاولى وما كان يجري الملك

على ان يذهب فارج نطاق الشريعة الإسلامية . وفي النظام الملكي يأتي أولا الملك ثم وزراءه ووزراته ثم قادة الجيش الذين يخوضون معارك الحرب مع اعداء الدولة فكانت لهم الأهمية الكبرى ومكانته عظمى في اعين الناس . وكان الشعراء يقصدون ابواب هؤلاء ويقرضون القصائد في مدحهم . ونالوا الجوائز سواء عدلوا مع الناس او ظلموا عليهم . وما كان لهم من هم إلا إجادة المدح للخلفاء والأمراء والقواد لخصومهم بأبهج صورة ممكنة . فكانوا يصورون لصورا رائعة في قصائدهم للطبيعة والأقوال الحربية وكان الهدف من ذلك كسب لقمة العيش . وهكذا نرى الكتاب ايضا كانوا يحسنون فنهم ليبالوا أحسن وظيفة في الحكومة وكان ترضيهم يتوقف دائما على حسن تقديرهم فكانوا يتهمون في الدواوين الحكومية . فلا نرى فيما بين هذه الطبقات المختلفة شخصا واحدا يحصره أو رعاية الناس ويرى الانسان كإنسان لصورته كاملة ومعاناته ويبتسم لتبشرا أحيانا فنرى في هذا الحصر كثرة الجواري والإماء وازدهار تجارتهم حتى كانت تنعقد لهم سوق وبعض الناس يربون الجواري احسن تربية لكي ينالوا ثمنا اكثر فأكثر . ولكن لم يخطر ببال احد منهم انهم إنسان مثلهم ولهم مشاعر وعواطف ينبغي الانتباه اليهم ولو أن الناس كانوا يعاملون معهم معاملة حسنة حتى في بعض الاحيان لذرفوا دموعا لفقدان بعضها وما كان اسرهم كالأرقاء في اور بابل كان معاملة المسلمين

معهم أحسن من معاملتهم مع الأحرار وهكذا من يعترف لهم المؤرخون الأوربيون،

ولكن بالرغم من ذلك لم يتناول أحد من هؤلاء قضية الإنسان ومعاملته من

قبل الإنسان فما هو السبب في ذلك . أرى أن البيئة التي كان يعيش فيها

الشعراء والأدباء المفكرون . لم تتعرف على أي نظام ما سوى النظام الملكي

الوراثي . ولم يحاول الساسة والمفكرون والمصلحون في البحث عن نظام آخر

يكون نيابيًا للشعب تمثيل أكثر وبرأي الرعية وأكثر ما فعل المصلحون في ذلك الوقت

وهو إصلاح الأشخاص بالدين بهم رجال السلطة من الملوك والوزراء والأمراء

والولاة.

وثانيًا بنظرة إلى الإنسان من حيث تشغيل المواهب والكامنة في

الدين لهم الكرامة البشرية للجميع . وكل سواد الناس القابلون والنظام بصفة

كونه بشرًا كانوا يرون الخصائل الحميدة للملوك والأمراء والوزراء

الأدباء بخبر ما تكون لعامة الناس - فإذا أخذت أحوال المجتمع وساء النظام

والقانون وتظلم الملوك والأمراء على الرعية وبلغ الناس من الجهد والبؤس

فينهض أحد من المصلحين والزعماء والأدباء ليتبعوا الملوك إلى أن يصحوا أنفسهم

ويقبلوا ما يلقى بهم . وعلى سبيل المثال أشهر وأبرز الأدباء في العصر العباسي

عبد الله ابن المقفع . جاء بكتاب كليلة ودمنة . وهذا الكتاب يحتوي على قصص و

حكايات على ألسنة البهائم ولكنها في الحقيقة كتاب إصلاح الملوك

والحكام ومن لهم شؤون الرعية، فماذا عليه وماذا له، كيف يعامل مع الناس وكيف يصبح محمودًا ومأجورًا عند الله. وكيف يرقى إلى المنزلة العليا في الناس وعلى سبيل المثال لو القينا نظرة عابرة إلى عامة الشعراء والأدباء فلو أخذنا بينهم أحدًا يتناول القضية الإنسانية... بل كل أشعارهم مملوءة بالمدح والرثاء والهجاء والغزل والنسيب وما إلى ذلك من الموضوعات التقليدية ولكن نرى فيما يسمى أبو العلاء المعري الذي مفعم بالتأملات البشرية ويذكر آلام الشعب وشاكلته وشكاة الإنسان، فقد أتى لديوان ضخم. يتضمن فلسفته أو تفكيره الفلسفي المستنبط ونحو تفكير يشغل منه بالإنسان عصره والإنسان عامة، فإنه تناول القضايا الإنسانية والتي فيه آراءه ومن بينها انتقاده لعلماء الدين المزيفين للمضيعة الفاضلة وكذا انتقاده بالصوفيا لقولهم بالحلول وسخر كثيرًا من ذكرهم ولقاعدهم فيه وساه رقصا ومن قوله فيهم.

تزيوا بالتصوف عن فساد ... فعل رزت الرجال أو اعتبت

وقاموا في لقاعدهم مزارا ... كأنهم ثمال من كميت.

ويهاجم الحكام عامة الذين يرتكبون الشغب لطرائب فادحة دون أن يؤدوا إليها المقابل له.

وأرى ملوكا لا تحوط رعية ... فكلامهم توفد هزبة وتكوس.

ويقول فيهم.

ظلموا الريبة واستجازوا كيدها فعدوا امضالها وتم اجرأها

منهم أحراء عند الكذب يأخذون رواتبهم من كذبه ويعتصرونها من عرقه، ومع ذلك يظلمونه ويبغون عليه ويكيدون له ويأتمرون به ويتسع بحملته يشتمل بها الناس من قوله فلا أخ كما مر بنا. ولا صديق وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق المزري المشين. ولم يسلم المرأة من اعلان هذا السخط فحقر وضعها فما لاشتطف من الود ولا لفن بالعهد. كما انه انتقد نقاد المجتمع في بعض جوانبه فدفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمنه والرأفة بهم ان دعا إلى المساواة بين الناس في السراء والضراء لقول:

كيف لا يشرك المضيقين في النعـ ـمة قوم عليهم النعماء

وكل نقده جوانب تمس انسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة. وقد كتب الدكتور شوقي ضيف عنه:

" ولعل ما اسلفنا من الحديث يوضح في اجمال كيف كان ابو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. وكيف ان فلسفته تقوم على تشاؤم حاد يرد إلى فقده لبصره حبيا، وإلى ما اطبق على المجتمع لزمنه من شرور، ومن كل فاسد كما ترد إلى احساسه العميق بآلام الانسانية التي ملأت قلبه لوعة مما جعله مفكرا انسانيا عظيما. ومن جانب ثاني، ليعضد موقف الزهد والتقشف ويتمسك بالايمان الصادق بالله ورسوله وشريعته ومن جانب ثالث استمد فلسفته من

من الاعتزال ما فيه تمجيد العقل وتفضيله ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه من التجسيد، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وانه حر كامل الحرية في افعاله الشريرة الآثمة والخيرة الطيبة.①

هذا هو خير مثال الذي خلقه لنا العصر العباسي وليس هذا في العصور الماضية اي شاعر شامل موضوع الانسان وشاكله بل شاعرنا هذا انه تأمل في شاكل الانسان إلى التكبر ودعا إلى العدل والمساواة والأخوة الانسانية.

① تاريخ الأدب العربي . د. شوقي ضيف ج-٦ ص: ١٧٦ - ١٧٨

النهضة الانسانية منذ عام ١٢٥٨ - ١٧٩٨

يتسم هذا العصر بالانحطاط والتخلف اذ غزت شعوب وحشية البدو الإسلامية واهلكت الحرث والنسل واحرقت المكتبات العلمية في بغداد وسمرقند وبخارا. فكان من الصعب للناس ان يكونوا في أمن وسلام وقضوا حياتهم محافظين على ممتلكاتهم واراضيهم بدلاً من الاشتغال في الأدب والعلم وما إلى ذلك من الأمور ولكن الله قد وعد بحفظ كتابه وضمن بقائه إلى يوم القيامه وهذه الرسالة تحمل في أضاعيفها نماء اللغة العربية من الامحاء ولذلك نرى لشوقي العلماء والفضلاء والادباء من لبنى وآخر الذين قاموا باحياء اللغة والأدب والعلوم الاسلامية فليس هناك اى عصر من العصور خال من الشمائل الرائعة والسرج المنيرة من بينهم القلقشندي المصري صاحب صبح الأعشى المتوفى سنة ١٤٢١ م وجمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة ١٣١١ م والفيروز آبادي صاحب القاموس المتوفى سنة ١٤١٧ م والمقريزي صاحب كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المتوفى سنة ١٤٤٥ م وجلال الدين سيوطي صاحب المؤلفات الجليلة المتوفى سنة ٩١١ هـ والبدر عائشة الباعونية وعبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون

فانتشار الخلافة العباسية وحملة الاقوام الوحشية على حضارتها وثقافتها تقطعا اوصالها الى دويلات صغيرة تسببت في تخلف اللغة العربية وحتى صعب مجرد بقاءها في مختلف البقاع الإسلامية

ومن جانب آخر تعززت القوى الصغيرة في مختلف الأقاليم الإسلامية تخلصت عن نظام مستبد للملوك والسلاطين والأمراء والإقطاعيين، وأسفر تحرر حكمهم وقهرهم عن هضم حقوق الإنسانية وحرمان الرعايا من الحقوق الطبيعية والوقوع في الفوضى والنزعات الانانية. ولما ارتقت الدولة العثمانية وترسخت اركان الدولة اقامت نظاماً عادلاً على الأسس والقوانين الإسلامية وسعت للشعوب وحقوقها ولكن مع مرور الايام وإلقاء نطاق الدولة وضعف سيطرتها على مختلف المناطق، فشى الظلم والطغيان ولم يصل عهد عبد المجيد الثاني حتى تحول النظام العثماني في حكم مستبد لا يهمه إلا المحافظة على الدولة بكل أساليب متوفرة ولم يراعى في ذلك الحقوق الانسانية. وهذا ما أشرنا إليه في الفصول السابقة. ولكن اود ان أؤكد لصورة خاصة على أن اعتقاد الناس بأن النظام العثماني كله جائر ومستبد فقط فاسد وليس من العدل والانصاف بل فشى ما فشى في الدولة في عصر الانحطاط وهذا ما يحدث في كل دولة فيها يتسرب فيها الضعف والاضمحلال.

ولا شك فيه أن هذا عصر الانحطاط للأدب العربي على وجه خاص، فتفشى الجهل والأمية والغفلة عن تطورات الزمان في بلاد العرب على وجه عام وقد صور لنا محمد حسين هيكل في تعقيب كتابه ما كانت عليه العلوم والثقافة والأدب فيما قبل العصر الحديث ثم نقل عن الجبرتي

وكيف لنصور المستوى العلمي ، وما بلغه من تخلف حينذاك ، أن نقرأ ما حكاه الجبرتي عن دهشته البالغة هو وبعض إخوانه ، خلال زيارتهم لمعمل علمي من معامل الفرنسيين وحضورهم لبعض التجارب هناك ، فقد تحدث الجبرتي عن ذلك كله وكأنه يتحدث عن عمل من اعمال السحر... لقول الجبرتي في حديثه عن المعمل وبعض التجارب العلمية التي كان يجريها الفرنسيون: " ... وأفردوا لهم مكانا في بيت حسن كاشف جركس لتعاطي الحكمة والطب الكيماوي . ومن غريب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتعبدين لذلك ، أخذ زجاجة من الزجاج الموضوعة فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس . ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فغلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وقف ما في الكأس ، وصار جمراً أحمر فقلبه على الزجاجات جميعاً فأخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجعله جمراً ياقوتياً . ثم أخذ فضة شيئاً قليلاً جداً من غبار البيض ووضعه على المنديل وحرجه بالمراقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القرابينة الزمجارية فضحكوا منا... ولهم فيه امور وأحوال وتراكيب غريبة يتنج منها نتائج لا يسعها عقول امثالنا "

واما المستوى اللغوي ووضع الشعر فكان أسوأ منها ولم يكن هناك شيء من العاطفة والإحساس بل كانت محسنات اللفظية محببة ويكثر عن ذلك كنا بنا ان نقرأ مثل قول ابن البيتين لبعض الشراء

فى وفاء النيل :

النيل فى مصر أوفى ← فى ثوت حادى وعاشر

والناس قد أرّخوه ← لله جبر الخواطر

قال شاعر ليس عنده شئ لقوله إلا التاريخ للعام الذى أوفى فيه النيل، وكان عام ١١١٧ هـ (١)

واما بالنسبة للنثر الأدبى والعلوم المتعلق به فوضعه ليس بمختلف عن الشعر وكان النثر مثقل بأثقال السجع والقوافى . وكان العلم عبارة عن الشرح والترجمة وشرح على شرحه والمتون والصور نفذ الوضع الدكتور شوقى ضيف .

« لم تعد العلوم شيئاً سوى متون مثل متن المنهج للشيخ زكريا الانصارى الذى جمع فيه كل مسائل الفقه الشافعى . وكان الأزهريون إلى قريب من عصرنا يحفظون ما يسمى مجموع المتون وهو مجموع يحصى كل انواع العلم الدينى ويحيله جملا مبهمة فى شعر او نثر للحفظ والتسميع . . . وكأن العلماء شعروا أنه لم يعد هناك شئ يقال . فمهمة الواحد منهم ان يتناول المتن الذى لخص فيه العلم والعبارة ادق لغز ليحله . وقد كتب فى الحل شروحا مبهمة ليس فى كثير من الأمر خيرا من المتن ، فيعد عالم آخر إلى حل الشرح

١- تطور الأدب الحديث فى مصر - للدكتور احمد هيكل (ص - ٢١)

بشرح ثان ليسمونه حاشية . ويتبين عالم ثالث او رابع أن شرح الشرح ليس كافيا فيعمد إلى التعليق عليه بما يسمى تقريرا" (١) ويضيف " لا تجد كاتبا ولا شاعرا تستطيع ان تقرأ له شيئا يلذ عقلك او يلذ روحك . وعلى نحو ما احجبت حياتنا العقلية تلخيصا للتراث الماضي وإنشاء الحواشي كذلك حياتنا الأدبية تلخيصا . بل تقليدا اصلا لبعض القصائد القديمة . يحاكيها الشعراء ويتناولونها بالتخميس والتسبيع او التشطير ولا يضيفون إلى ذلك إلا عقدا من البديع المتكلف الممقوت . وكأن الغرض من القصيدة تطبيق القواعد البديعية ولا أكثر ولا أقل . ومن المستحيل أن تجد في اثناء ذلك عاطفة او شعورا اصيلا . وبالمثل الحجج الكتابة شيئا سمجا الحجت سجعا ولكنه سجع ضعيف ركيك لا ترى شيئا سوى الفان البيان والبديع المجردة ." (٢)

وخلاصة القول أن هذا العصر لم ينتج اي شيء يستحق الذكر وابتعد عن النزعات الانسانية والتأملات البشرية فهي البعد من الخيال والتصور بل هذا هو العصر الذي شهد النوع من انتهاك الحقوق الانسانية ودروس الفكرة او النزعة البشرية .

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ص : ٣٠

(٢) نفس المصدر ص : ٢١

النزعة الانسانية في الأدب الحديث

تطور الأدب العربي الحديث تطوراً شاملاً بعد ما طرأ عليه الركود والجمود من جانب والى تشعبت موضوعاته وفروعه وتقدم إلى ان يعد من الآداب العالمية وطرأ هذا التطور في الأدب العربي بسبب ازدهار العقل العربي واتصاله بالغرب وتم ترجمة العلوم والفنون إلى اللغة العربية من اللغات الشهيرة ثم انشاء المطابع ودور النشر وبعد ذلك انشاء الصحافة وتغير النظام السياسي في البلدان العربية وبخاصة في مصر والذي منح الناس حرية الرأي والتعبير فاصبح مخاطبة القراء والادباء الشعب وعامة الناس ولم يعد يخاطب الشعر والنثر الملوك والأمراء فحينما بدأت الصحافة والشعر والنثر تخاطب عامة الناس فكان من الطبيعي ان يتناول ما يهم هذه الطبقة من امور ومشاكل ولذا عالج الشعراء والأدباء قضية الانسان وما يجب عليه وماله من حقوق الإنسان وما يستحق المرء بكونه إنساناً. ولذا نرى في هذا العصر ان لا يوجد هناك شاعر او كاتب إلا تناول مشاكل الناس وقضاياهم وكل تغنى بالاخاء والمساواة والعدل والحرية المتساوية حتى ان البعض اعتقلوا بسبب انتقاد الحكام لمظالمهم او سوء سياستهم ونرى ان في هذا العصر وجد الأدباء القصة والرواية اسهل طريق للتعبير عن ما يوجد في نفوسهم ولضمير المجتمع كما يجبون. كما انهم استخدموا هذا الفن

لتصوير معاناة الشعب والقضايا الانسانية والمساوئ الخبيثة التي كانت تسود في المجتمع، نرى ان الدكتور طه حسين يكتب كتابا بسمة - المعذبون في الأرض، وجاء فيه بقصص عديدة تناول فيها مساوئ المجتمع ولصور لنا كيف يمكن ان يسود الرخاء والسعادة والحب الانساني في المجتمع وما هي الكراهة البشرية وكيف يمكن تحقيقها.

وعلى سبيل المثال اخذ انا أنى بقصة عنوانها "قاسم" أسرة فقيرة تتكون من اب وام وابنة فكان تعيش في بيت صغير وما كان تملكه حاجاتها وكانت مهنتها صيد السمك، ويبيعه وكان أي احد الأغنياء بنت الرجل فدبت فكرة الاستغلال لهذه الفتاة وبدأ يراودها حتى قضى منها مناه وبينما علم الأب بهذه القصة فانتحر، فالدكتور صور هذه الوضع صورة رائعة بكلمات مناسبة، ثم كتب عن نهاية القصة، وقد يجب القارئ ان يعرف كيف بدأت بداية الأمل، وكيف بدأت بها اليأس وكيف لعبت بها صروف الدهر ولكن القارئ ليس في عاجة إلى ان اقص عليه هذه الخطوب فأيسر شيء ان ينظر إلى هذه الحياة الصافية من حوله يرى جنبها، أمهات وبنات.. (اسم البنت دائم) كثيرات لا يحصين بالمئات ولا بالألوف وانما يحصين بمئات الألوف وقد يحصين بالملايين، تطلع الشمس عليهن كل يوم مشرقة لتبشر بهن وبكلمها ولكنها لا تحمل إليهن رضا ولا غبطة ولا أحدا من الرضاء والغبطة، ويقبل الليل

على تفاهم الظلمة يزيد أن يتمدد القمر في أطواره المختلفة. ويزيد أن يتقط النور تلك
التي تتناثر في السماء، ولكنه لا يحمل البعض راحة ولا أملا في الراحة وإنما
يرفض إلى النوم تقبل ببعض كربه يشقى منه أحلام. بغيضة لضوء الشفق
به حتى النهار يغيض من فياه. لا تفعل الشمس بعض حين تطلع، ولما يجفل
الليل بعض حين يقبل وتتفاعل بالليل والنهار ببؤس البائسين، ولئيم
التاعسين. ولكن الغريب أن الأحياء من الناس الذين انبعث لهم قلوب
تشعر، وعقول تفكر، ولنفوس تميز بين الخير والشر. ولئيم كان خليقا
أن يلفتهم إلى جسيم البؤس. فهؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضي الليل
والنهار إلى غايتهما لا يحفلون بأمونة ولا سكينة ولا "تباسم" تتعلم النعم
عن كل شيء وعن كل إنسان. (1) كما تقول الأديب الآخر هذا المتفلوطي الذي
بكى بكاء أحارا على آلام الشعب ومعاناته وانتقد برجال الدين لاستغلال الناس
لبعضهم الفاسدة كما انتقد بشدة السياسة الذين يحكمون الشعب بالجور
والظلم وسود الكثير من كتاباته. ويمكن أن نلاحظ كتابه "النظرات" في هذا الصدد
ولديه مقاييس ومقاييس أخرى للسعادة والشقاوة. فإنه لا يجري مختلف الدليل للسعادة
فيتنقد من يرى كذلك فيكتب "ما أظلم الأغنياء من الإنسان وما أقسى قلوبهم
أيتام أحدهم على بضعة على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنين يسمع

---

(1) المعذبون في الأرض - ذ. طه حسين - ص ٥٨

أبين فاره وهو يرعد برداً وقراً ويجلس امامه عالدة حافلة بصنوف الطعام

تحدثه وشوائه حلوة وحامضة ولا ينفض عليه شعوات علمه أن بين اقرباء

وذوي رحمة من ثوابت اثناءه شوقاً إلى فتاه تلك المائدة .... وكان

يقول في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته

" أنا سعيد لان غني وانت شقي لانك فقير "

" لا استطيع ان اتصور الانسان انسان في أراه محسنا لاني لا اعتقد

تفضلا صحيحا بين الانسان والحيوان إلا الانسان. والشخص المحسن الذي في نظر الذي

يستحق بان ندعوه انسانا هو الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا اعلم له

مكافأة ولا اجد اليه سبيلا. واحسب عمله هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني

ديوجين الكلبي فيما سئل بالصنع بعصاه. وكان يدور به في بعض الشوارع فقال

: " اقفن على الانسان "(1)

" ونرى من الشعراء كلامهم مملوء بالحب الانسان وحبه أو الصحيون

فيما يرون الظلم بنوعه الشعب يقتل ويسلب من الانسان حريته. وحرية

الرأي والتعبير وما إلى ذلك من الأمور يدلان من ان يسود السلام والأمن

والإخاء والمساواة. وهكذا مجال واسع لا يمكن ان نأتي بأمثلة كثيرة

وحسبنا الآن ان نقرأ قصائد معروف الرصافي كيف يعبر عن عاطفة وشعوره ضد

---

(1) تاريخ الأدب العربي - احمد حسن الزيات . ص ٤٦٤

الظلم وسلب الحرية .

يا قوم لا تتكلموا ـ ان الكلام محرم

فاذا ظلمتم فاصمتوا ـ طربا ولا تتظلموا

او قيل هذا متعدكم ـ مرّ فقولوا علقم

او قيل ان بلادكم ـ يا قوم سوف تغنم

فتحمدوا او تشكروا ـ وترنحوا وترنموا

واما النزعة الانسانية لدى ادباء المهجر فيكتب الدكتور عبد الكريم قد استفاض ادبهم وتترجم ونجاشه ـ من هذا الحقل استفاضة رائعة هبيرة بكل لتقدير لجهود الحياة الانسانية ولتغنوا بما واستكروا اي لون من ألوان الاعتداء عليها وتشويهها . سواء كان ذلك من داخل النفس أم من خارجها وتمكوا ـ لذلك . بالاستطاعوا . بالفضيلة واشغلوا بالارادة ودورها الخطير في حياة الانسان من الانتصار والجري وراء الشهوات .

ولعل ابا شهم العميق بكرامة الانسان وقدسية الحياة . ودفاعهم الحار عنها أكبر لتبريره ابا شهم بهذه الحياة وبلنابا تها التي تبلغها بالانسان وحده وهو الصورة العليا التي سيشهد لها من تعرف ذاتها وتتظهر بالألم وتتعلم بالتجربة في مدى الأعمار الطويلة ـ ان تبلغ مرتبة الألوهية .

وأنكر هؤلاء الأدباء ان يقع الاعتداء على الانسان والحياة الانسانية من الخارج مهما تكن الأسباب. كما أنكروا ان يقع من الداخل ودعوا إلى ان يتحرر الانسان من عبودية الانسان كما يتحرر من عبودية الشهوات، ومن هنا كان يوضع الرائع من الدعوة إلى السلم والحب والتنكر للحرب وللعنف في صوره المؤذية كلما واستفاض من ذلك في نثرهم استفاضة يتعذر ان نجد معها أثرا لهم غالبا سنه من لقد احيت هذه الدعوة إلى المحبة والأخوة الانسانية السمة البارزة لنتاجهم الأدبي كله شعرا او نثرا. فالغوا بها الفوارق الطائفية والأعلبية والوطنية بل الغوا الفروق الدينية كلها.①

هذه عدة اشياء للنزعة الانسانية وسنقوم معاني الأدب العربي الحديث. كما اني ذكرت في البداية ان كل الادباء في هذا العصر تناولوا هذه القضية ولا يسع المجال ان نثبت هنا آراءهم وكتاباتهم ولذا اكتفينا بالسطور السابقة، ولتتضح لنا ان معظم الأكبر ان يحملوا الانسانية ويبشروا بالتصور الإنساني ورسالته إلى العالم وقد نجح إلى حد كبير ادباءنا المعاصرون في هذا الصدد.

---

(١) النثر المهجري ص (٩٠)

الباب الثالث

الفصل الاول : الاتجاهات الأدبية السائدة خلال أيام جبران خليل جبران

الفصل الثاني : اسلوب كتابة جبران خليل جبران

الفصل الثالث : الحب للطبيعة وتصويرها

الاتجاهات السائدة خلال أيام جبران خليل جبران

غزا نابليون مصر في عام ١٧٩٨. ومكث ثلاث سنوات فيها وقد اطلع الشعب المصري من خلال هذه الحملة على بعض وجوه الحياة الأدبية. فقد رأى المصريون افرادها ينامون ولون حياتهم المادية لصور لم يكونوا يألفونها سواء في أكلهم وشربهم او في لهوهم، وما كانوا يقبلون من حفلات التمثيل والغناء والرقص والموسيقى.

ولفتت الحملة المصريين بما حقق الغربيون من تقدم في العلم فان نابليون استقدم معه طائفة من العلماء البارعين المتخصصين في مختلف العلوم التاريخية والطبيعية والرياضية. ولم يلبث فيما نزل مصر ان أسس المجمع العلمي المصري على غرار المجمع الفرنسي وانشأ نابليون بجانب هذا المجمع العلمي معامل ومكتبة ومطبعة وكانت المعامل تعنى بالبحث العلمي التجريبي وكان الفرنسيون يستدعون المصريين لرؤية ما يجرون من تجارب كيميائية لا تعهد لهم بها فيعجبون وينبهرون ومن غير شك كان ذلك يدعو المصريين إلى التفكير في علمهم النظري وان وراءه علماً في الغرب ينبغي ان يقفوا عليه.

ولقد ما غادر نابليون مصر تولى الامراء أمرها فحاولوا ان يشجعوا فعلاه خان والي مصر ارسل الوفود إلى اوروبا ليتعلموا اللغات والفنون الأجنبية. كما انشاء المدارس والمكاتب وبدأ التطور وانشأ مطبعة فكانت تطبع الكتب العربية واصدرت الوقائع المصرية وهكذا بدأت النهضة

الأدبية في مصر. وأما سورية ولبنان فقد كانت في اتصال مع الغرب منذ زمن بعيد وكانت البعثات المسيحية في هذه الأقطار المدارس التي ساعدت في اتصال العقل العربي وتثقيفه بالجيل الجديد. فكان اللبنانيون والسوريون أوفر حظا من العلوم الأوربية بالنسبة للشعوب العربية الناطقة في أقطار أخرى.

وكما أن الاستعمار البريطاني خلال احتلاله على الأقطار العربية حاول اعطاء ثقافته وعلومه على العلوم العربية وثقافتها. وأنشأ المدارس والمعاهد وساعد البعثات في الأقطار العربية، وبدأت حركة الترجمة في ترجمت من العلوم والمعارف من كل اللغات الشهيرة فبلغت هذه الترجمات إلى عدد لا يحصى وذلك بفضل المطابع ودور النشر وفي هذا العصر انتشر اصدار الصحف والمجلات وساهم في ذلك اللبنانيون والسوريون لصورة خاصة الذين هاجروا إلى مصر كما أن الوفود التي أرسلت إلى أوربا بدأت تعود إلى البلاد فكانت مشحونة بتحلية بثقافات الغرب وعلومها وفنونها فساهمت في النهضة العلمية والأدبية في مصر. وهبت صفحات الصحافة مفتوحة أمامها فلعبت دورا فعالا في تثقيف الشعب وافادتهم من العلوم التي تلقت من الغرب فكان هناك تغيير عظيم في الجو السياسي والعلمي أن ان الحكم المطلق تغير إلى نظام برلماني ونال الشعب العربي المصري حقوقها السياسية والدستورية والتعبير عن رأيه وممارسة حقوقه كلها، وبدأ الكتاب يتناولون الموضوعات

السياسية والاقتصادية والأدبية كلها التي كانت تهم الشعب لأن المناخ

قد تغير الآن فكانوا لا يخاطبون السلاطين والأمراء والحكام بل الآن الشعب

وعامة الناس، ودعا ذلك الأدباء والشعراء إلى التفكير في الأدب من الشعر والنثر

وذلك لسبب شيوع العلم والمعرفة لأن المطابع لم تكن تطبع الآداب القديمة

المترجمة فحسب بل الدواوين للشعراء الجاهليين والعباسيين أيضا وقد أوقر إمام

الشعراء والكتاب نموذجا فنيا من الشعر والنثر خاليا من السجع والتكلف فإن النظر

إلى جماعة الشعراء في ذلك الوقت نجد طائفة تميل إلى نفس الأسلوب

والطراز الذي كان يألفه منذ أيام فإن الشعراء مثل محمود صفوت الساعاتي

على أبي النصر وعبد الله الفكري وعلي الليثي وعبد الله نديم وغيرهم حاولوا إحياء الشعر

ولكن لم يخلوا تماما من البديعيات والمخمسات والتضمينات، وبقوا على

طرازهم القديم وكانوا يقرضون الشعر لم يكن فيه عاطفة والشعور ولا أي

شيء يهم الشعب. ثم جاء جيل آخر يترأسه البارودي وهو نظير إبراهيم واليجن شوقي

وخليل مطران وقرنوا الشعر على نفس المنوال الذي كان في زمن العباسيين

الأول مع بعث معاني الجديدة وحاولوا تضمين القضايا المعاصرة

فكانت أشعارهم مختلفة تماما عما كانت عليه عصر المماليك والعثمانيين.

فقد عكفوا على قراءة الشعر العباسي وتأثروا به تأثرا واستفادوا منها

حتى استقامت لهم أساليبهم وسمى هذا الجيل بالمحافظين لأنهم كانوا

ليعتمدون في شعرهم على المادة الأدبية القديمة وليحاكون بأهدافها وحافظ الشعراء الثلاثة البارودي وحافظ إبراهيم وشوقي محافظة دقيقة على صورة القصيدة العربية، وليتضح عندهم تأثير المطبعة وانتشار التعليم وظهور الصحف، وما نتج عن ذلك من تحول الشعر إلى دوائر الشعب بعد أن كان مقصورًا على الطبقة العليا من الأمراء ومن حولهم من المثقفين وهذا التحول الذي أصاب الشعر خلف آثارًا لا تحصى في شعرهم، فمن ذلك أنهم أخذوا يعبرون أساليبهم في تفهم العامة، لأنهم يريدون أن تفهم الطبقات الوسطى والدنيا ما يقولون وكانوا يحرصون على نشر شعرهم عن طريق المطابع والصحف على الجماهير، وأصبح أكثر ما يفكر فيه الشاعر أن ديوانه سيقرؤه كثير من الناس وأن قصيدته ستنشر في الصحف وسيقرأ من جمهور ضخم، ويعمل ليضمن على إرضاء هذا الجمهور، يتغنى له بما يهمه من حياته العامة من أفكار وآراء، وبذلك أخذت تختفي حياة الشاعر الخاصة وعواطفه وأهواؤه بينما أخذت تتضح حياة الجمهور وعواطفه وأهواؤه - على كل حال حافظ هؤلاء الشعراء على التقاليد العباسية القديمة في الوزن والصياغة وهم من جهة أخرى عبروا بالشعر عن شاعر الشعب وعواطفه، وبعبارة أخرى إستأنفوا لشعرنا حياته القديمة الخصبة وطوعوه ليؤدي حياتنا العامة أداءً دقيقًا.

وجاء بعد ذلك جيل آخر كان يختلف على السابق في فهم الشعر
وتصوره وكان يريد ان يكون الشعر تعبيرًا عن النفس لا عن عناصرها الخاص
ولكن عناصرها الإنسانى العام، وما تضطرب به من خير وشر وألم ولذة،
وبعبارة أخرى أراد ان يكون الشعر تعبيرًا عن الطبيعة وحقائقها وأسرارها
المبثوثة فيها، فليس الشعر بحياة ولا قومية ولا هو تسجيل
لحوادث الأمة و ما يجرى على أرغام السنين، وانما هو قبل كل شئ
تصوير لعواطف انسانية تزدحم بها النفس الشاعرة وتندفع على لسان
الشاعر لتصور صلته بالعالم والكون حوله. وروّاد هذا الجيل هم عبد الرحمن
الشكرى ثم المازنى والعقاد. كون هؤلاء الثلاثة مدرسة شعرية واحدة
وأخرج عبد الرحمن الشكرى اول محاولة لهذه المدرسة، ونشر ديوانه
سماه «ضوء الفجر» متناولا في قصائده معانى إنسانية عامة تنبع من قلب صادق
الإحساس بمشاعره ولما توحى به الطبيعة من حوله، فهو شعر ذاتى كامل الذاتية
ليس شعرًا اجتماعيًا ولا شعرًا غنائيًا كما كثر ما اتجه الشعراء المحافظون
وانما هو حديث نفس مترجم عن دقائق مشاعرها وآلامها واحلامها
كما تترجم عن الكون وظلاله وسمائه والغازه وما يحمل بين جوانحه من حقائق
وأسرار.

وهنالك نزاع آخر هل كل الالفاظ صالحة لأن تكون مادة للشعر ام لا؟

حصل هناك صياغة شعرية وما يسمى صياغة غير شعرية بل كل الألفاظ صالحة لأن تكون مادة للشعر بنثرها الحالة.

والطلق شكرى فى إثر هذه الدعوة ينظم شعره وتجربته الجديدة فليس هناك ما يسمى صياغة شعرية ثابتة. وأكثر من ذلك لقد فكر أصحاب هذا النزع فى الأوزان ورأوا أن يجددوا فيها فنونا من التجديد. فأخذ شكرى يجدد قوافيه واستخدم الشعر الدورى الذى تتغير القافية فى كل بيت منه. وحاول ان يستخدم ضربا جديدا من الشعر الذى يعرف بالشعر المرسل وفيه يتقيد الشاعر بالوزن ولكنه لا يتقيد بالقوافى. فلكل بيت قافيته او لكل بيت نهايته.

ويكتب شوقى ضيف كيف كان ديوان الشكرى، وبذلك كله كان ديوانه "ضوء الفجر" ثورة على شعرنا القديم والحديث سواء من حيث الموضوع والنزع من حيث اللغة والقوافى. فالشاعر يريد ان يحطم كل القيود التى تقف امامه فى الصياغة والقافية.

وسار على نفس الطريق المازنى والعقاد وكانا ناقدين كما كانا شاعرين فأخذا يكتبان فى المذهب الجديد ويقارنان بينه وبين المذهب البارودى وتلاميذه. وأخذ يحملان على هذا المذهب الذى يحافظ على إطار الشعر العربى القديم حملات شواء فى حين تحمس مذهبهما تحمسا حارا.

فنشر العقاد والمازني معًا كتابا سميا "الديوان"، وفيه يعقد العقاد فصولا طويلة في النقد شوقي يقول فيها:

"اعلم ايها الشاعر العظيم ان الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها، وأن ليس من مزية الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبه، وانما مزيته ان يقول ما هو، ويكشف لك عن لبابه وصلته الحياة به، وليس من التلخيص ان يشاركنا في اشواط البصر والسمع وانما منهم ان يتعاطفوا ويودع أحسهم والمبعثم في نفس أخوانه زبدة ما رأوه وسمعوه وفلاسفة ما استطابوه او كرهوه واذكان وكذلك من التشبيه ان تذكر شيئا آخر، ثم تذكر شيئين او أشياء مثله في الاحمرار مثلا زدت على ان ذكرت اربعة او خمسة أشياء تدل شيئا واحدا، ولكن التشبيه ان تطبع في وهمك ان ما تعلك وتذكره وصورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك وما إبتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان. فان الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة يدانها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس، ولقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه وتفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه." ①

وهناك نموذج ثالث من شعراء العرب الذين هاجروا إلى امريكا الشمالية مثل جبران وايليا ابو ماضي ونسيب عريضة وميخائيل نعيمة، ولنيعمة كتاب

① نقلا عن الأدب العربي المعاصر في مصر. د. شوقي ضيف ص: ٦٤

رائع في الشعر والنقد المعروف بالغربال.

ويكتب في كتاب «مالك فسان» قسم ينظر من حيث تركيبة وتنسيق عباراته وخواتمه وأوزانه والآخر يجري في الشعر قوة شعورية قوة مبدعة، قوة مندفعة إلى الأمام. والشعر في الحقيقة ليس الأول وحده والثاني فقط بل هو كلاهما. الشعر هو غلبة النور على الظلمة والحق على الباطل، هو ترنيمة البلبل، ولوح الورق، وخرير الجدول، وقصف الرعد، هو ابتسامة الطفل وضحكة الثكلى ولون وجنة العذراء وتجعد وجه الشيخ وهو حمال البقاء وبقاء الجمال. الشعر لذة التمتع بالحياة والرعشة أمام وجه الموت. هو الحب والبغض، والنعيم والشقاء، هو صرخة اليأس وقهقهة السكران وتهتهة الضعيف وعجب القوي. الشعر ميل جارف وحنين دائم إلى الأرض لم نرفعها ولن نرفعها هو إنجذاب إلى الأرض لم نرفعها ولن نرفعها هو انجذاب أبدي لم نفقد لكون بأسره والاتحاد مع كل ما في الكون من جماد ونبات وحيوان هو الذات الروحية تحدد وتتلاشى أطراف الذات العالمية. وبالإجمال فالشعر هو الحياة بأكملها وضاحكة، وناطقة وصامتة ومولدة ومعطلة. وشاكية ومسبحة وشقاء ومدبرة[1] ثم يكتب الشاعر فيقول: الشاعر ليس إلا ما يدرك بحواسه الجسدية أو بإلهامه بروحه، لسانه متكلم من فضلة قلبه أما الشعر فيحاول أن يفسرها لم أعلم ما هي لم تعلم علم اليقين إنما لم تعرفه

(1) الغربال، ص ٢٩٦

برأس لا في النوم ولا في اليقظة، وليصف لنا عواطف لم يشعر بمثلها البشر ولا بن
ولا ملك من أول وجود هذا العالم حتى اليوم، لذلك نحفظ نحن أشعار الأول
فنحفظها ونرددها، ونضحك" قصائد منضرب بعضها بعض الحائط. ①

لكنه هي لبعض الانجامات الأدبية التي كانت لتوجد في تلك الأيام والآن
يلتفت إلى القسم الثاني من الأدب وهو النثر.

كثرت الترجمة في أوائل القرن التاسع عشر من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية
وبفضل شيوع الصحف والمجلات وتوفر دار النشر والمطابع توسعت دائرة آفاق
الأدب الغربي، ولكن لم يزل الكتاب يكتبون على أسلوب السجع والبديع الذي
في عصر الانحطاط ولقد صدق من أن أدب أمة لا ينشأ ثريا آداب أمة أخرى بمجرد
التقاء الأمتين. بل لا بد من وقت أو أوقات حتى تستطيع الأمة أن تأخذ
من غيرها وتهضم ما تأخذه وتمثله ثم تخرجه أدبا جديدا له طوابعه وشخصيته.

ولذا نرى أن جماعة المترجمين تحت إشراف رفاعة الطهطاوي، لم يستطع
أن يجرد نفسه من أسلوب السجع والبديع ولكن لم نقطع أشواطا بعيدة في هذه
الوجهة نرى الكتاب والأدباء يبرأون ليسيروا اللغة حتى تفهمها عامة الناس لأنه مع تغير
الزمان قد تغيرت الطبقة التي تحب الكتاب والقراء ولكن نزعة تيسير اللغة
أدت لبعض الناس إلى استخدام العامية وتروجها بدلا من استعمال اللغة الفصحى

---

① العرائس ص: ٢٠٤

وكان ممن يدافع عن هذا الاتجاه محمد عثمان جلال وعشيره الذي ترجم روايات موليير إلى اللغة الدارجة وفي الآن نوجد بعض الغاره ولكن لم ينجح هذه المحاولة إلى الحد الحدود لاسباب دينية واجتماعية وسياسية.

وفي هذه الفترة نجح الادباء في تيسير اللغة العربية وتحريرها من السجع والبديع، فقد أخذ المترجمون والأدباء يلائمون بين اسلوبهم وطبقات الشعب حتى تفهم ما يريدون أن يقولوه. وقد أدت الطبعة والصحافة دورًا فعالا في تنشيط الأدب العربي وإحيائه وكانت الصحافة تتناول جميع القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية. وكانت تنقل إلى القراء مباحث واسعة في الأدب والفكر الغربيين وكان ذلك سببا في اتساع نطاق الأدب وقد أدى إلى خصومات أدبية مثل العقاد والمازني ليؤلفان الكتاب "الديوان" وفيه لقد العقاد شوقي لقدًا عنيفًا، اما المازني فقد شكري ثم لقد المنفلوطي وأسلوب لقدًا ناثرًا وهو الذي يهمنا الآن، فقد لاحظ عليه ضعف الثقافة وان اسلوبه لفظي طالعي لا يحوي معنى ولا فكرة ذات بال وبالغ وقال ان اسلوبه ناعم رائع فارغ لا يحوي سوى الموضوع والعبارات مما يستهوي الرائعين.

وقد أخذ المازني ينبذ هذا الاتجاه في النثر مشيرة يترجم نماذج اوروبية وتارة لصوغ نماذج عربية جديدة في القصة وغير القصة. وللعقاد جولات واسعة في هذا الصدد مع مصطفى صادق الرافعي وكان لا يعجب بالعقاد

ولا بشعره ونثره وكان محافظا محافظة شديدة. ولم يلبث طه حسين أن اعلن رأيه فيها وانضم الى الاستاذ الزوق الادبي الحديث وشبت بينه وبين الرافعي معركة حادة. فالرافعي يذود عن حصنه القديم، وطه حسين يرميه بسهام الذوق الحديث الذي تغير تغيرا تاما والذي أصبح يؤمن بأنه ينبغي ان نغير تغييرا حرا طبيعيا من حياتنا ولا بأس من بعد ذلك أن نستعير عن الغربيين لبعض معانيهم وأساليبهم مادام ذلك لا يفسد جمال اللغة العربية وروعتها. فان ادباءنا المجددين، من امثال طه حسين وهيكل والعقاد والمازني كانوا يرون ان يحاولوا مع الأسلوب الفصيح الرصين الجزل الذي يكون لأدبهم موقع حسن من الأسماع والقلوب، فهم يحرصون على الاعراب وعلى الألفاظ الصحيحة التي تقرها المعاجم وهم في داخل هذا الإطار يجددون تجديدا لا يخرج بهم عن اصول العربية وانما يتنسمونها ويتمثلونها بما يلتقطون من نماذج جديدة وفكر جديد.

أعرب العقاد عن رأيه في مقدمة الغزال لميخائيل نعيمة في هذا الصدد فيكتب قرأى ان الكتابة الأدبية فن. والفن لا يكتفى بالإفادة ولا ينتهي عند مجرد الافهام.. وعندي ان الأديب قد يحل من الخطأ في بعض الأحيان. ولكن على شرط ان يكون الخطأ جزئيا مراجل واقل من الصواب، وان مجاراة التطور فريضة وفضيلة. ولكن يجب ان نذكر ان اللغة لم تخلق اليوم فتخلق قواعدها واصولها في طريقنا، وان التطور انما يكون في اللغات التي ليس لها قواعد واصول

ومن وجدت القواعد والأصول. فلماذا نهملها أو نخالفها الا لضرورة قاسرة لا مناص عنها؟ ① وقد يكون من المناسب بل الضروري ان نذكر رأي الناقد الكبير والأديب البارع من المهاجر الأمريكية نعيمة بن نائل نعيمة. فيقول: قصارى الكلام، يا سادتي، ان القصد من الأدب هو الافصاح عن عوامل الحياة، كما انتابنا من أفكار وعواطف، وان اللغة ليست وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت اليها البشرية للافصاح عن افكارها وعواطفها، وان الأفكار والعواطف كيانان مستقلان لهما. للغة. فمن اولا واللغة ثانيا. وان كل القواميس وكتب الصرف والنحو في العالم لم تحدث ثورة ولا وجدت يوما امة، وان اللغة في ادق تراكيبها ليست سوى مستودع رموز يرمز بها الى افكارنا وعواطفنا وانه يحسن منا الاحتفاظ لهذه الرموز ما دامت ناهضة بما استبقيناها في سبيله. وان بعض هذه الرموز ليصبح على مر الايام طلاسم فالأولى نبذه، وان الشعراء والكتاب هم واضعوا هذه الرموز وهم اولياء امرها فانه اذا ابتدع شاعر او كاتب رمزا من رموزكم المألوفة او جاءكم برمز جديد فتحفظون به وهي النجاة او سنخطو. واذا عرضتم عنه فسيتلاشى من تلقائه ①

هذه آراء تمثل الاتجاهات الادبية التي كانت سائدة في ايام جبران حتى جاء جبران بأسلوب متين رصين جزال تفوق على الجميع وتعرك كل المناقشات الأدبية

---

① الغربال. ص ٢٤٥

التي كانت يخوض فيها الادباء والنقاد والشعراء واثبت بكتاباته أن

هناك حقيقة ما وراء القيل والقال واعترف به الزمان انه كان محقًا

فيما قال.

اسلوب جبران خليل جبران

اسلوب تأدية المعنى هو الذي يميز الكاتب او الشاعر من آخره وقلما يكون في اداء بيانه وضوح وجلاء يبشر لهم واكبر من الآخرين كما أن الابتكار في المعاني والفكرة يحدد منزلة شاعر او كاتب فيما بين الكتاب والشعراء. فربما يتبع الكاتب او الشاعر المتقدمين من الشعراء والكتاب في اسلوب بيانهم وتأدية معانيهم وربما يشترك اساليب القدماء وينتهج لنفسه اسلوبا آخر فان نجح في ابتكار اسلوب لقوة بيانه ودقة معانيه فقد فكرته فيتحقق له ذلك الاسلوب ويفوق الآخرين من الكتاب والشعراء. فان العين لنظرة عابرة إلى قاعة الكتاب والشعراء فنجد كثيرا منهم يتبع آثار المتقدمين او المعاصرين، ولكن من بين هؤلاء نجد الشاعر الفذ والأديب البارع والرسام الحاذق الذي وضع لنفسه اسلوبا يمتاز به الآخرين. هو جبران خليل جبران والدليل على ذلك ان المعاصرين والباحثين بعده لم يجدوا في آثاره شيئا يشابه في اسلوبه الآخرين فاعطوه إسما آخر هو الاسلوب الجبراني. ومن ذلك انه غير مقلد الآخرين في اسلوبه كما انه يدل على تفوقه وعلوه على الآخرين. وكما انه يدل انه منح فطر كثيرا من المواهب الفطرية والمؤهلات الطبيعية التي لم تكن من نصيب الآخرين. فهو في الحقيقة احد عظماء العرب الشاذين واحد العباقرة المتفرد به عالميا فماذا كان اسلوبه؟

فأول شئ يميزه من الآخرين انه كان محاكيا او مقلدا لآثار الآخرين في كتابته او قرض شعره ولما كان له اي اسلوب خاص او طريقة خاصة يشعها في جميع كتاباته. فقد كان يختار اسلوبا لبيان شئ ثم اسلوبا آخر لبيان شئ آخر والى ذلك أشار احمد شبش،

لم يكن جبران يجري على طريقة واحدة في الكتابة فهو حينا يكتب خيالا عاطفيا مجردا وحينا أحاسيس دافقة عميقة، وطورا يخاطب الناس بالامثال والرموز والحكم والمواعظ الروحية ... وطورا باسلوب التعنيف القاسي، وتارة يكتب شعرا فلسفيا تأمليا، وتارة نقرا شعريا موسيقيا غير أن كل هذه الأساليب والطرق التعبيرية كانت تفيض من شخصية متميزة في تفكيرها وخيالها وعواطفها وتجري بألفاظ شفافة عميقة التأثير سواء كان يكتب نثرا او شعرا وسواء أكان الموضوع خصوصيا ام تأملا او حكمة او خيالا او تأملات في الحياة الطبيعية وفي الكون وما وراء الكون. (1)

فمن الواضح الآن انه لا يتبع أحدا في اسلوبه ولا يختار اسلوبا واحدا في التعبير عما يجيش في قلبه فما هي المزايا التي تميز اسلوبه من الآخرين وقد قام انيس المقدسي في تحليل اسلوب جبران خليل جبران (2) "هي ما يبدو التأثر به في الخيال روعة الايقاع، عنف العاطفة، فلننظر قليلا في كل منها.

---

(1) تاريخ الشعر العربي المعاصر ص ٩٨

(2) الفنون الأدبية واعلامها للأنيس المقدسي ص ٢٢٤ - ٢٣٥.

(١) **بعد الخيال**: ليس الفرق غالبا بين الأدب الرائع والأدب العادى إلا فرقا فى قوة الابتداع. وأهم عناصر هذه الابتداع ثلاثة. التصميم الموضوعى، والتصوير البيانى والتوسع النظرى. ويراد بالتصميم الموضوعى ابتداع فكرة تدور عليها القطعة الأدبية، وانك لتجد ذلك بارزا فى معظم ما وصف جبران. لا فرق بين مقالته او كتبه. خذ مثلا من مقالته (ارباء الأجيال والآثار الخالدة) حيث يحاول ان يبين لنا أن الأجيال التى تمر لتخلق اعمال الانسان لا تفنى اعمالها ولا تضعف عواطفه اذ أن هذه الأعمال والعواطف تبقى ببقاء الروح الكل الخالد. ثم قد تتوارى أحيانا ولكنها لا تلبث ان تظهر ثانيا كما تظهر الشمس فى الصباح.

وهذه قصته (وردة الحانى) التى يقصها علينا لتثبت أن كل ما فى الأرض يحيا بناموس لبيعته. وان لطبيعة ناموسا ليتمم بحب الحرية واخراجها اما البشر فمحرومون من هذه النعمة. لانهم وضعوا لأرواحهم الالهية شريعة عالمية محدودة وسنوا لأجسادهم ولنفوسهم قانونا خاصا واقاموا للمولهم وعواطفهم سجنا عنيفا مخيفا.

(٢) **التصوير البيانى**: وكما ان لبعد الخيال يظهر فى اختيار الموضوع وطريقة إخراجه كذلك هو ظاهر فى كتابة جبران بما يسوقها من روعة التصوير البيانى، وليس جبران نسيج وحده فى ذلك اذ هو شائع فى أدب القدماء والمحدثين على ان لتصوير جبران صبغة خاصة لا يسع الباحث إلا أن يراها.

فهو تصوير فني شعري، يتناول المعاني وأطلالها، والواقع أن نثر جبران من طراز الشعر يكثر فيه ما يستحب في الشعر من مجاز رائع. فإذا أراد نقلا وصف الغنى واستمامات الديونة قال: متى الموسر في طريقه وشغل الهم متبعا أطواله؛

وينظر إلى الأسد سجينا في قفصه الحديدي فيخاطبه واصفا حياة البشر والمسامهم قائلا: انظر أيها الأسير الجليل النظر إلى تلك الشوارع المتفرجة والأزقة الضيقة في أودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين مغرباتها هي ساعة قتال مستتب بين الرمائب. تتناول فيها الأرواح متضاربة ولكنه يجتنب السيوف وتتصارع متناهشة ولكن بجنب الأنياب بل هي مناجاة الأنعوال تكلمها حيوانات داجنة المظاهر، معطرة الأذناب، مصقولة القرون لا تقتضي شرائعها بقاء الأنس، بل بدوام الأروغ، والأجيل ولا تتوول تقاليدها إلى الأفضل والأسمى، بل إلى الأقبح والأكذب، اما ملوكها فليست أسد الغابات بل هي مخاليق عجيبة لهم مناقر السنور وبراثن الضبع وألسنة العقارب ولقيق الصفادع؟

لقد وقف بعض الأمثلة واذا تأملت في تخيلات الشاعرة التي يستعملها للتعبير عما يجول في نفسه من حكم وخواطر. فوجدت فيها العنصر الثالث من عناصر البعد في الخيال - اعني، التوسع الفكري، ذلك لأنه بجمال التصوير يحمل الفكر إلى ابعاد من المعاني وراء حجب الألفاظ. فكتابته من هذا القبيل

كرسومه لتتبين نظائرها لتنفذ إلى الباطن البعيد.

⑤ **روعة الايقاع** او (الروعة الموسيقية). وهي عبارة عن كلام على على انها تشتد أو تضعف بالنسبة إلى موضوع الكلام او حالة المتكلم، فاذا كان موضوعه مما يتسع لتدفق العواطف لكثير من مقالته وفصوله، اذ كان هو في حالة تأثر وانفعال لأكثر مقالاته، فانك تجد العبارة تتواثب منه في مقاطع موسيقية ترتاح اليها النفس، ولا ينبغي ذلك انها تتقيد بتوازن او سجع، ولكنه يعني ان تراكيبه تأتي موافقة لموسيقى افكاره. ففي مقاله "مساء العيد" مثلا لصق رب العيد (يسوع) بقوله "قلت ومن انت؟ قال في صوت هدير مياه غزيرة. أنا الثورة التي تقيم ما افقدته الأمم، أنا العاصفة التي تقتلع الانصاب التي انبتها الأجيال. فما الذي جاء ليلقي في الأرض سيفا ولا سلاما"

فالكلام غير مقيد بأصول التوازن والسجع ولكنه يمتاز اكثر من التوازن والسجع لانه يعبر عن افكار تسودها الموسيقى الجميلة.

③ **عنف العاطفة** : ولعل في كتابة جبران ظواهر ابرزها ثلاث التقريع، والتهكم، والتمرد، وهذه الثلاث تنبت من اصل واحد وهو عدم الرضا بما يأتيه الناس من اعمال الناس على ان لكل منها صفة خاصة بها. فالتقريع هو التعنيف او التأنيب لوجه إلى من لا يحسن العمل والتهكم هو الاستهزاء

مما يحمله. اما التمرد فهو الاستكبار عما يحمله. ومن التقرب قوله من فصل في العبودية: يعنف الناس بحملهم العبودية في اي شكل جاء حتى مقاله "يا بني امي. يعنف الناس: نفوسكم تتلوى جوعا وخبز المعرفة اوفر من حجارة الاودية ولكنكم لا تأكلون. وثلوجكم تختلج عطشا ومناهل الحياة تجري كالسواقي حول منازلكم. فلماذا لا تشربون. لقد كنت احبكم يا بني امي وقد اهزني الحب ولم ينفعكم. واليوم حمرت اكفهكم والكره سيلج لا يجرف غير القضبان اليابسة. ولا يهدم سوى المنازل المتداعية. - لماذا تطلبون مني يا بني امي، بل لماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من ابنائها ولا اراكم تنتفضون في مخالب الكهان والمتعوذين او افادكم ترتجف بين انياب الطغاة والسفاحين. وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء والفاتحين فلماذا ترجون من وقوفكم امام وجه الشمس. انا ارهقكم يا بني امي لأنكم تكرهون الجهد والعظمة. انا احتقركم لانكم تحتقرون نفوسكم. انا عدوكم لانكم اعداء الحرية ولكنكم لا تعلمون.

وفي باب التعلم يحمل جبران على اعتساف النفوس من الحساب المكر والخبث والجبن والجمود، منبطرا الى "الأسد السجين" والى من يحيط بقفص من المتفرجين وليقول له: "تنعس في وجوههم. تجد في ملامحهم ملامح مكنت تراه في سحنات ادنى رعاياك واعوانك في مجاهل الصحراء. منهم من يشبه الأرنب لضعف قلبه

ومنهم من يماثل الثعلب ما شاله ومنهم من يضارع الأرنب في جبنه ، ولكن ليس بينهم من سلامة الأرنب ، وذكاء الثعلب وحكمة الأرنب ؛

اما التمرد لدى جبران منصبا على الأكثر على الماضي وعلى ما يلي من تقاليده ، ولا نبالغ اذا قلنا أنه طابع جبران الخاص وخصوصا في الطور الأول من حياته الأدبية ففي "عواصف القبور" مثلاً نراه يحاول انما ليهدم ما بناه الناس من اوضاع وشرائع فيقول على لسان "الاله المجنون" . وفي الصباح أجدف على الشمس ، وعند الظهيرة العن البشر ، في المساء أسخر بالطبيعة" وفي الليل اركع امام نفسي واصلي" ولبد ان يلتقي لبعد الآلهة وليسمع حديثه ، لقول "لعواصف القبور" وفي اليوم التالي طلقت إمرأتي وتزوجت حبيبة من بنات الجن ثم اعطيت كل ولد من اطفالي رغيفا وحبرا وقلت لهم اذهبوا ، وكلما رأيتم هيكلا عاريا من التراب ومن ذلك الساعة إلى الآن وانا احفر القبور واحد الأموات ، غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من ليعفني" فكأنما مهمة الشاعر ان ينتظف العالم من رواسب الماضي وما يلي من انظمته وعاداته .

ويلخص القول ان كتابات جبران خليل جبران تتميز ببعض المزايا هي لبعد الخيال وروعة الايقاع وعنف العاطفة . والآن نرى كيف وصل جبران إلى تلك الذروة من البيان وما هي الأدوات التي تسخر بها التميز اسلوبه وتعميق أثره قد كتب د. خليل الحاوي① مما لا يرقى اليه الشك بان جبران يدين بالكثير لترجمة الكتاب المقدس الانجليزية ولما هو فني في لغة مراثي وفي اقتباسات جبران الوافرة من الكتاب المقدس برهان على تأثره بلغته ،

① جبران خليل جبران : د. خليل الحاوي . ص ٢٢٥ .

، ذلك انها لا تبرز بروزا ظاهرا في بنية اسلوب مجال من الأحوال . اما تحسين جبران في لغة الكتاب المقدس ولغة المراثي فقد كان في اضافه إلى تهذيب الكلمات واستخدامها بطريقة جديدة . على حد ما نرى عند الرومانطيقيين الاوربيين ، لاقاحة الشعير من بعض المشاعر النفيسة الدقيقة . وعلينا ان نوافق جبران في قوله أن الوسيلة الوحيدة لاحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين اصابعه ..

وكما يبدو ان بعض كتاب النهضة الكلاسيكية تركوا أثرا في اسلوب جبران ولكن لا يتعدى حدوده لبضعة انطباعات متفرقة . اجمالها : بعض صور تذكرنا « بنهج البلاغة » وبعض تعبيرات واشارات بلاغية مقتبسة من اسماق ترد في « العواصف » ومحاكاة لايقاع القرآن وتكراره في قصيدة نثرية من « دمعة وابتسامة » عنوانها « الجمال » وتمة كاتب آخر هو امين الريحاني ، وقد كان معاصرا لجبران واكبر منه سنا . سبق أن عامل ادخال القصيدة النثرية إلى الأدب العربي فأثر بها وتأثر ولكنه اضعف لافتقاره إلى موهبتي الخيال والعاطفة اللتين اتصف جبران بهما افتقاره إلى مقدرته اللغوية ،

كما ويتميز اسلوب ويتعمق تأثيرا من اجل استخدامه لبعض الأدوات او الأشياء في كتابات ، ومنها انه يستخدم المقابلة بين الأشياء ويأتي بكلمات تؤدي المعنى بوضوح الذي يريده وهكذا نجد في كتابات المبكرة عددا من الجمل ذات الموازنة الطباقية كقوله مثلا : « اريد ان امرح شوقا ولا احيا ملالا » بل نرى سمتي قصائده النثرية « دمعة وابتسامة » وهكذا نرى يقول مخاطبا الليل « أنت ظلام يرينا انوار السماء ، والنهار نور

ليغزنا بطلمة الأرض، ويحقق هربا من المقابلة أحيانا باستخدام المرادفات مثلا تستنطق وتستفز في العبارة، تستنطق الضمير وتستفز القلب، وما إلى ذلك ليضيف لنفس الكاتب.

وللكتابات جبران العربية ميزة اخرى من تلك النغمة الايقاعية الناتجة من استخدامه ادوات الاستفهام في بدء الجمل او الفقرات المتعاقبة، ولذلك يستخدم الألفاظ التالية، أين وكيف؟ ولماذا؟ استعمالا قصيا ويشرع في ذلك إلى طرح عدد من الأسئلة ثم الإجابة عنها او احد هو احد على حد ما يفعل في هذه الحروف النارية، كذلك تنتج نغمة أخرى من تكراره الكلمة الواحدة او استخدامه الكلمات المتتابعة بعضها في جوار بعض، كما في، حياة الحب، حيث يستعمل، علمني، سيري معي، يقال! صبيا، ويكرر اللفظة، لترجع، مرتين، ثم اقترب ارتبا، ولقد يكرر ايضا هذه الضمائر، أنا، أنت، هي، انتم، اواسنا، اما سفرا او اما سفوتا، كما في ذلك المقطع من، الاجنحة المتكسرة، الذي يتكرر فيه التعبير من مذكر واحد غير مرة ①

فاتضح لنا ان اسلوب جبران خليل جبران يتميز بالرصانة والرشاقة مابين الغموض والإفضاء وله لسان سلس عذب يمس القلوب بالمعاني المبتكرة وتجذب الدواهف والمشاعر بافكار مبتدعة تحمل في طياتها.

---

① جبران خليل جبران د. خليل الحاوي، ص ٢٢٨

الحب للطبيعة وتصويرها

الحب للطبيعة ومناظرها الخلابة داخل فى طبيعة الانسان فحينما يراها يتاثر بها ويجذب قلبه إليها فان كان شاعرا يتغنى بأغانى مختلفة وإن كان اديبا بارعا يصورها فى كتاباته كما يحب ويشاء أو كما ينظر إليها وان كان رساما ينرسم لها بريشة ويأتى بتصاوير تعبر عن المناظر الطبيعة وإن تجمع هذه الخصال الثلاثة فى شخص فكم يكون تصويره بارعا جذابا. وإن كان محبا للطبيعة والإنسانية ويريد أن يوافق بين طبائع الناس وطبائع الأشياء الموجودة فحتى أنه يصور لما يليق بوجهة نظره ورسالته وهكذا نرى جبران محبا عاشقا للطبيعة ويأتى بالمناظر الخلابة فى كتاباته. وكانت هذه النزعة تتواجد فيه منذ الصغر ولذا نرى حينما كان يتعلم فى مدرسة الحكمة فكان يخرج للتنزه ويتسلق الجبال والقمم ويزور الأودية ويأتى بخيال رائع اذ قال مرة لزميله وصديقه وهما على قمة جبل فرأت قرية لبشرى لابسة الندى وفوقها السماء الزرقاء فأعجبها هذا المنظر فقال جبران لصديقه - الناس فى بشرى لا يرون إلا الضباب أما نحن فنرى الصفاء وما وراءه لأننا على القمم ولأننا خلقنا لنصلح الكون(١)

اونرى فى كتاباته أنه يجعل الريح والبحر والأرض والأودية والجبال والأنهار موضوعا ويأتى بفكرة عجيبة كأنه يريد أن يجعل التوافق بين الحياة البشرية والكون الذى يحيط بها ولنر كيف يصور الريح -

---

(١) جبران خليل جبران الفن والشخصية . اشفاق احمد ص ٤٥

"تمرين آنا مترنحة فرحة، وآونة متأوهة نادبة، نسمعك ولا نشاهدك، ونشعر بك ولا نراك، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها، ويتلاعب بأفئدتنا وهي ساكنة.

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنبسطين مع السهول والمروج. ففي تصاعدك عزم، وفي انخفاضك رقة، وفي انبساطك رشاقة، فكأنك ملبك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويترفع مع الأقوياء المتشامخين.

في الخريف تنوحين في الأودية فتبكي لنواحك الأشجار، وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها، وفي الربيع تعتلّين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فتخالك ميتا قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها.

لكن، أنادبة كنت أيام الخريف، أم ضاحكة من خجل الأشجار بعد أن عرّيتها من ملابسها؟ أغاضبة كنت أيام الشتاء، أم راقصة حول قبور الليالي المكلّسة بالثلوج؟ أعليلة كنت أيام الربيع، أم حبيبة أضناها البعاد فجاءت تصعد بالتنهّد أنفاسها على وجه حبيبها شتاب الفصول لتنبهه من رقاده؟ أميتة كنت أيام الصيف، أم هاجعة في قلوب الأثمار وبين جفنات الكروم وعلى بيادر القمح؟

أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ومن الروابي أرواح الأزهار، وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التي تحمل أوجاع الحياة بسكينة، وبسكينة تلتقي بأفراحها.

أنت تهمسين في أذن الوردة أسرارا غريبة تفهم فؤادها، فتضطرب تارة، وطورا تبتسم، وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر.

أنت تبطئين هنا، وتسارعين هناك، وتتراكضين هنالك، ولكنك لا تقفين ابدا، وهكذا تفعل فكرة الانسان التي تحيا بالحركة وتموت بالسبات.

أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعارا ثم تمحينها. وهكذا يفعل الشعراء المجددون.

من الجنوب تجيئين حارة كالمحبة، ومن الشمال تأتين باردة كالموت. ومن المشرق لطيفة كلامس الأرواح، ومن المغرب تتدفقين شديدة كالبغضاء. أمتقلبة أنت كالدهر؟ أم أنت رسول الجهات تبلغين علينا ما لا نملك عليه؟ ①

وكما أتنازى هنا يرى جبران الطائر الشحرور يتغرد فتجيش عواطفها ويأتي بأغنية الحرية ولو دروا لو كان للانسان مثل هذه الحرية.

"أيها الشحرور غرد فالغناء سر الوجود.

ليتني مثلك حر من سجون وقيود.

---

① المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران - ص: ٢٢٨ - ٢٢٠

ليتني مثلك روحا في مضى الوادي أطير.

أشرب النور مداما في كؤوس من أثير.

ليتني مثلك طهرا وانتشاءا ورضى

معرضا عما سيأتي غافلاً عما مضى.

ليتني مثلك لحنا وجمالا وبهاء

تبسط الريح جناحي كي يوشيه الندى.

ليتني مثلك نكرا- سابحا فوق الهضاب

أسكب الأنغام عفوا بين غاب وسحاب.

أيها الشعور عني واصرف الأشجان عني.

إنّ في صوتك صوتا نافذا في أذن أذني." ①

---

① المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران - ص: ٦٠٧

الباب الرابع

النزعة الانسانية في كتابات جبران وقبل جبران

الفصل الاول : تصور الانسانية لدى جبران

الفصل الثاني : دعوة جبران إلى انهاض الطبقة الضعيفة من المجتمع

الفصل الثالث : المساواة والحب للضعفاء

الفصل الرابع : الأخوة العالمية

الفصل الخامس : أثر كتابات جبران في ادباء العرب

خاتمة البحث

تصور الإنسانية لدى جبران خليل جبران

قد يكون من الصعب أن نجد تعريفا محددا لتصور الإنسانية لدى جبران مثل ما نجد لموضوعات اخرى حيث يحتم الكاتب لنقل تعريف وشرح له ولكن يمكن استنتاج تصوره وفكرته للإنسانية من خلال دراسة كتاباته. فأولا نرجع ماذا يكتب الكاتب عن تصور انسانيته فقد كتب الدكتور عبد الكريم الاشتر[1] عن تصور الانسانية لدى الأدباء المهجريين قائلا لقد انكر هؤلاء الأدباء أن يقع الاعتداء على الانسان والحياة الإنسانية من الخارج، مهما تكن الأسباب، كما انكروا أن يقع من الداخل، ودعوا إلى أن يتحرر الإنسان من عبودية الإنسان كما يتحرر من عبودية الشهوات، ومن هنا كان موقفهم الرائع في الدعوة إلى السلم والمحبة، والتنكر للحرب وللعنف في صوره المؤذية كلها. واستفاض ذلك في نثرهم استفاضة يندر أن نجد معها أثرا لهم خياليا منه، حتى لقد أصبحت هذه الدعوة إلى المحبة والأخوة الإنسانية السمة البارزة لنتاجهم الأدبي كله شعرا ونثرا، فألغوا بذلك الفروق الطائفية والإقليمية والوطنية، بل ألغوا الفروق الدينية كلها.

يقول جبران مخاطبا الانسان: "انت اخي، وكلانا ابن روح واحد قدوس كلي، وأنت مائتي، لاننا سجينا جسدين جبلا من طينة واحدة. وأنت رفيقي على طريق الحياة. ومسعدي في ادراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم، أنت إنسان، وقد أحببتك يا أخي".

---

(١) النثر المهجري ص (٨٩)

أحبك ساجدا فى جامعك ، وراكعا فى هيكلك ، ومصليا فى كنيستك ، فأنت وأنا إبنا دين واحد هو الروح ، وزعماء فروع هذا الدين أصابع مثلا صفة فى يد الالوهة المشيرة إلى كمال النفس » . ويقول : « نقول فكرتهم الموسوية ، البرهمية ، البوذية ، المسيحية ، الإسلام . أما فكرتى فتقول : ليس هناك سوى دين واحد مجرد مطلق ، تعددت مظاهره وظل مجردا ، وتشعبت سبله ولكن مثلما تتفرع الأصابع من الكف الواحدة »

ولنر كاتبا آخر وهو ديمى الناعورى فيكتب فى هذا الصدد (١)

لئن كنت أقول « ادب المهجر » ، وادباء المهجر ، فانى أشعر بان فى قولى هذا تعميما وإطلاقا ، وأن فى التعميم - غالبا - شيئا من المغالاة . لذلك لابد لى من التخصيص ، فلم يكن كل ما عرفناه من أدب المهجر أدب رسالة ، ولا كل ما عرفناه من أدباء المهجر أدباء رسالة . وإنما الذين يتميزون منهم بهذه الصفة وتتسم بها آدابهم ، هم فئة كريمة من أدباء المهجر ، وفى مقدمتهم أصحاب « الرابطة القلمية » تلك الرابطة المباركة التى صنعت العجائب فى النهوض بمستوى الأدب العربى الحديث . وأصحاب هذه الفئة المباركة يتفاوتون فى فهمهم لرسالة الأدب ، وينهجون فى تأديتها سبلا تتباين أحيانا ، ولكنها تظل مع ذلك متقاربة كل التقارب ، لأنها تصدر عن إحساس واحد للحياة الشاملة الواحدة .

---

(١) ادب المهجر ص ١٨٦ - ١٨٩

فجبران ، ونعيمة ، وأبو ماضي ، ونسيب عريضة ، مثلا ، اتخذوا من الأدب « رسالة إنسانية » مثالية ، تتعالى على سائر الفروق والنزعات الإقليمية والطائفية والقومية والدينية ، في حين اتخذ الريحاني والقروي وفرحات وصيدح وطعمه ومنصل وغيرهم من الأدب « رسالة قومية » ،

وأما جبران الذي كانت تتسم كتاباته بالروح الإنسانية المثالية ، فاننا نجد معاني هذه الإنسانية في كل كتاباته تقريبا ، ومنها قطعة بعنوان « عظمتني نفسي » يقول فيها : « وعظمتني نفسي فعلمتني وأثبتت لي أنني لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة . وقبل أن تعظمني نفسي كنت أحسب الناس رجلين : رجلا ضعيفا أرق له أواسيه ، ورجلا قويا أتبعه وأتمرد عليه . أما الآن فقد علمت أنني كوني فردا ما كون البشر منه جامعة : فمناصري عناصرهم ، وطويتي طويتهم ، ومنازعي منازعهم ، ومجتبى مجتبيهم ، فان أذنبوا فأنا المذنب ، وان أحسنوا عملا ، فاخرت بعملهم ، وان نهضوا نهضت وإياهم ، وإن تقاعدوا تقاعدت معهم » .

وكذلك نجدها في القطعة التالية بعنوان « صوت الشاعر » وهي نفحة إنسانية من النفحات التي تهب من القلوب الكبيرة ، لتوسع آفاق عاطفتنا وتبسط حدود أدبنا ، فتربطنا بالإنسانية كلها . ففيها يقول نابغتنا الخالد جبران : أحن إلى بلادي لجمالها ، وأحب سكان بلادي لتعاستهم ، ولكن اذا ما هب علي مدفوعين بما يدعونه وطنية ، وزحفوا على وطن قريب وسلبوا أمواله ، وقتلوا رجاله ، ويتموا أطفاله ، ورملوا نساءه ،

وسقوا أرضه دماء بنيه ، وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه ، كرمت إذ ذاك بلادى وسكان بلادى .

أتشبب بذكر مسقط رأسى ، وأشتاق إلى بيت ربيت فيه ، ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى فى ذلك البيت وقوتا من سكانه ، ومنع مطرودا ، إستبدلت تشبيب بالرثاء وشوقى بالسلو ، وقلت بذاتى : إن البيت الذى يضن مالك خبز على محتاجه ، وبالغراش على طالبه ، لهو أحق البيوت بالخراب .

وهكذا يتضح لنا مفهوم تصور الإنسانية لدى جبران وناتى ببعض القطعات الأخرى ليتجلى لنا الأمر اكثر فاكثر . فنرى فى إحدى رواياته «خليل الكافر» يعلن بطل القصة عن تمرده ضد الحكام الجائرين الذين يخربون الدنيا لإشادة قصورهم العالية ولبقصون دماء الفقراء الفلاحين والمساكين لبناء معبدهم الإصطناعى ويغرقون الناس باسم الدين والمذاهب لتوطيد حكمهم فيها فيقول : (١)

بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حصونهم ولتقوى اجسادنا قد أقاموا الأهرام لتخليد أسمائهم ، فحتى متى نبنى القصور والسروح ولا نسكن غير الاكواخ والكهوف ، ونملأ الأهراء والخزائن ، ولا ناكل غير الثوم والكراث وكوك الحرير والصوف ، ولا نلبس غير المسوح والأطمار .

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ص (١٦٢)

بخبثهم وإحتيالهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة ، وأبعدوا الطائفة عن الطائفة ، وبغضوا القبيلة بالقبيلة ، فحتى متى نتبدد كالرماد أمام هذه الزوبعة القاسية ، ونتصارع كأشبال الحالفة بقرب هذه الجبهة المنتنة ؟ لحفظ عروستهم وطمأنينة قلوبهم قد سلحوا الدروزي لمقاتلة العربي وحمسوا الشيعي لمصارعة السني ، ونشطوا الكردي لذبح البدوي ، وشجعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي . فحتى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم ، وإلى متى يتوعد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة ، وإلى متى يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله ؟ "

وفي قطعة اخرى يقول (١)

أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني وأحب الأرض بكليتي لأنها مرقع الإنسانية روح الالوهية على الأرض ، الإنسانية المقدسة ، روح الألوهية على الأرض ، تلك الإنسانية الواقفة بين الغرائب ، السائرة فامتها العارية بالأطمار البالية ، الذارفة الدموع السخينة على وجنتيها الذابلتين ، اعادية ابناءها بصوت يملأ الأثير أنه وعويلا وأبناءها مشغولون عن ذاتها . بأغاني العصبية ، ينصرفون عن دموعها بصقل السيوف ، تلك الإنسانية البائسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون وان سمعها فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزاها في شدائدها قال القوم : اتركوه فالدموع

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ص (٢٤٥)

لا تؤثر بغير الضعيف ،،

الإنسانية روح الألوهية على الأرض . تلك الألوهية السائرة بين الأمم المتكلمة بالحبة ، المشيرة إلى سبيل الحياة والناس يضحكون مستهزئين بأقوالها وتعاليمها . تلك التي سمعها بالأمس الناصري وسقراط مسموعة والتي سمعها اليوم القائلون بالناصري وسقراط وجاهروا باسمها أمام الناس والناس لا يقدرون على قتلهم لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية أقسى من القتل .

وفي قطعة اخرى يكتب هكذا إنما الإنسانية نهر بلّوري يسير متدفقا مترنما حاملا اسرار الجبال إلى أعماق البحر . أمّا أنتم يا بني امي فمستنقعات خبيثة تدب الحشرات في أعماقها وتلوى الأفاعي على جنباتها

إنما النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الحشيم وتنير الألواع وتنير اوجه الآلهة-أما نفوسكم يا بني امي فرماد تذريه الرياح على التلوح وتبدده العواصف في الأودية

أنا اكرهكم يا بني امي لأنكم تكرهون المجد والعظمة

أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم

أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون !!! (١)

وليس من السهل أن نثبت قطعات اكثر من هذا تدل على تصور وفكرة جبران

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران - ص: ٢٩٢

«الإنسانية» وقد اتضح لنا أن لديه حب جمّ للإنسانية ويرى الناس كالإخوان لافرق بينهم على اىّ اساس من الديانة والقومية والوطنية وما إلى ذلك كما أن تصور انسانيته عبارة عن حب الضعفاء والمساكين والرحمة التامة فى الحياة، وسنرى بعضا من هذه الأمور فى الأبواب القادمة.

دعوة جبران إلى إنهاض الطبقات الضعيفة من المجتمع

قد وجه جبران دعوة حارة إلى ترقية الطبقة الضعيفة والبائسة من المجتمع. ويرى أن أسباب التخلف والمذلة تكمن في نفوس الناس وعلل الشعب وأمراضه تتمثل في اتباع التقاليد والمراسيم البالية باسم الدين والشرائع البشرية كما أنه يرى السبب في ذلك الاعتقادات الفاسدة لحوامير الحياة. وكما أنه يرى السبب وراء ذلك الطبقات الحاكمة وقد أشار إلى الأديان أن في حين ضلال جبران كانت الأقطار العربية ومنها سوريا الشام مقيدة بأغلال التقاليد الدينية والاقطاعية المستبدة فكان الشعب يعرق عرق جبين ويمتص دماءه رجال الدين والسياسة ووجه نقده الأدعاء هاتين الطبقتين اللتين كانتا تستغلان الناس باسم الدين والسياسة. وفي الحقيقة كانتا تقضيان حياة رغيدة بكسبات الشعب المسكين. وقد أبرز مساوئ هذه الطبقات لصورة القصص. فأثر ذلك الناس ثورة على الدين والنظام. ولكن جبران للشعب والطبقات البائسة استفاضت في كتاباته والملفت للنظر أنه دعاهم إلى الثورة والنهوض بدلا من التغني بأمجاد الآباء والأجداد وقبول بالعظيم الزمان،

.. ومن هذه الطبقات المسكين واليتيم والفقير. وكم من مرات نرى هؤلاء الناس ونرثي لهم ولكن لا نحرك ساكنا من الاهتمام بأمرهم وكم من مرات مررنا على الأولاد وأنباء الأطفال يبيعون الزهور والمناديل وتنقض علينا

وهم قصة فيا نعم - فصل لنا من حلب لزحم وتحاول وكافح لأجل القادم من هذه الحالة

السيئة التي تدل على فقرهم ويتمهم وضعفهم وقد يرى جران الدار الأولاد الشامي فكيف

يملأ قلبه بالرأفة والمحبة والحور.

في عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل أتأمل الدراك المشرف على ساحة المدينة

واسمع جلبة باعة الفواكه ومناداة كل منهم على طيب ما لديه من السلع والمآكل،

إقترب مني صبي ابن خمس يرتدي أطمارًا بالية ويحمل على منكبيه طبقا علب طافات

الزهور، وبصوت ضعيف يخفضه الذل المرير والانكسار الأليم قال:

- أتشتري زهرًا يا سيدتي؟

نظرت إلى وجهه الصغير المصفر، وتأملت عينيه المكحولتين بأهلة

الطفولة والفاقة. وفمه المضموم قلبه كانت جرح عميق في هيكل رتيع

وزاحمه الباريش النحيلتين، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على

طبق الزهور كانها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة.

تأملت كل هذه الأشياء بلمحة خاطفة ثم أشفقت بابتسامات هي أعذب من

الدموع. تلك الابتسامات التي تنبثق من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا

ولو كنا على وشك الضياع لشعاعت والتمعت من مآقينا. ثم ابتعت

بعض زهوره ولبثتي ابتياع محادثته لأنني شعرت بأن من وراء الزهرات

الحزينة قلبا صبورا يتطوى على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيام وقل من بينهم يشاهد تمثيلا مأساويا. ولما خاطبته بكلمات لطيفة استأنس واستأنس ونظر إلي شزرا لأنه ظن أن أبناء الفقراء لم تجود بغير فحش الكلام من أولئك الذين ينظرون غالبا إلى صبية الإزقة كأشباه قذرة لا شأن لها وليس كنفوس حية مكلومة بأسهم الدهر. وسألته إذا زال قائلا:

- ما اسمك.

فأجاب وعيناه تطرقان إلى الأرض

- اسمي فؤاد.

قلت: ابن من أنت وابن أهلك.

قال: أنا ابن مرتا البائسة

قلت: وابن والدك

فهز رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد. فقلت.

- وابن أبيك يا فؤاد

قال: ربما في البيت.

تجرعت سامعا هذه الكلمات القليلة من فم الصبي واستشعرت عواطف بديعة شعرا وأسى طاغيين محزنة وفي عرفت لحظة

أن مرثا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القروي هي الآن في بيروت مريضة، تلك الصبية التي كانت الأمس منذ سنة بين أشجار الأرز في هذه الديرة تنافس نحل الفقر والإيداع. تلك البنيمة التي عرفت تنبيتها على أكف الطبيعة وترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر الديرة الغاسرة وصارت فريسة بين أظفار النعاسة والشقاء. ①

وهناك قصة لعبود ان الخليل الكافر وولد هذا الرجل بشيا نحو أربعة الظروف إلى الأديرة فكان يرعى الغنم والماشية ولم يألف الإنجيل سرًا ويرى بعينيه أعمال القسيسين والرهبان وحملة الكتب المقدسة الذين كانوا يشتغلون بكل أنعم الحياة والتعب يزرع ويفلح ويكد ويعمر لهن دياره ويعانون من البؤس والفقر وكان لهم أحسن إضافة مع الأسرار والسامة والإقطاعيين وكان هؤلاء لا يعطونهم إلا الفتات مما تدهم وهذا زعم تعاليم الإنجيل المقدسة التي كانت يحلفون بها الله. فتمرد هذا الرجل ضد الرهبان كانت مغبته أن يطرد من الدير في ليل باردة.

فترحمت له أرملة وابنته وأدخلته إلى كوخها ووشى الرشاد في الكلام إذ جاء رجل مراد من الدير واستوطن هناك وقد يأتي بالعجوة والماشم

---

① المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ص 71

وطلب وهو كم مكبلا ابد بعا فاعلن جريمة على رؤوس الأشهاد، فلزكيف
لصور لنا جبران مساوى ومظالم الرهبان، بحيث التأس على تبذل الشريعة وارتياع
الشريعة الطبيعية، فاولا خطاب البطل القصصي ضد الرهبان.

فمن يوم وقد سكن نفسي من هذه الخمرة السماوية لتشجعت ووقفت بين الرهبان،
اذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المخمومة وأخذت ابين لهم
أخطاءهم واتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبين جهلهم وكفرهم. قلت لهم:
لماذا الصوف الاديم في هذه الخلوة مشتغلين بخيرات الفقراء والمساكين،
مستطيبين الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع اجفانهم متلذذين بغلة الأرض
المملوحة بدمهم، لماذا انعيش في ظلال النعاني والكسل، مبتعدين عن الشعب
المحتاج إلى المدرسة حارمين البلاد قوى نفوسها وعزم سواعدها، ان
يسوع الناصري مدبغكم كالحرائف بين الذئاب. فاي تعاليم جعلتكم تصيرون
كالذئاب بين الخراف؟ لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم الله لشراء
اذا كنتم افضل من الناس السائرين في موكب الحياة عليكم ان تذهبوا اليهم
وتعلموهم، وان كانوا افضل منكم اشزجوا بهم وتعلموا... كيف تتذمرون الفقر
وتعيشون كالأمراء، وتتذمرون الطاعة وتتمردون على الانجيل، وتتذمرون
اللعنة وملوكم مفعمة بالشهوات؟ أنتم تتظاهرون بقتل اجسادكم
ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم، وتتظاهرون بالترفع عن العالمات وانتم أكثر

الناس طمعا. وتتقاعدون بالتشاكل والتقشف وأنتم كالبهائم الشرود
عن المعرفة بطيب المرعى. تعالوا نعيد أراضي الدير الواسعة إلى سكان
هذه القرى المحتاجين. ونرفع إلى جيوبهم الأموال التي أخذناها. تعالوا نتفرق
إلى كل ناحية مثلما تتفرق أسراب الطيور. فنحدم الشعب الضعيف الذي
جعلنا أغنياء. ولنصلح البلاد التي نغتني بخرابها. ونعلم هذه الأمة الشعثة
أن تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية. لأن
المتاعب التي نجدها بين الناس هي أجل وأجمل من الراحة التي نستسلم إليها
في هذا المكان. والرأفة التي نلمسها بمعاطف القريب هي أسمى من الفضيلة
المختبئة في قرانا الدير وكلمة التذمر التي نقولها على سامع الضعيف
والمحروم والساقط هي أشرف من الصلاة الطويلة التي نردد دعاءها بهذه الكهوف

ثم إذا تم قوله أمام أبواب الجزار تعوكل بالسلاسل فقال ملتفتا نحو الشعب
قد أشرتكم قضاتي بأن إرادة الشعب هي مشيئة الله. فأيقظوا أهلوكم واسعوني جميعا ثم
احكموا علي بما توحيه ضمائركم. قد قيل لكم إني رجل كافر شرير. ولكنكم لم تعرفوا
ما في قلبي. وقد رأيتموني مكشوفا كاللص القاتل ولم تسمعوا البدلة تدافع عني. لأن
حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظل مستترة وراء الثياب. أما الثياب
فتظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل.

---

(1) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران - ١٢١ - ١٢٢

جريمتي أيها الرجال هي إدراكي لقساستكم وشعوري بثقل قيودكم وآثامي أيتها النساء هي شفقتي عليكن وعلى أطفالكن الذين يمتصون الحياة من صدوركن ممزوجة بلعاب المرض.

أنا واحد منكم أيها الجمع. وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الأودية التي تستنزف قواكم. وسالوا تحت هذا البئر الذي يلوي أعناقكم، أنا ابن بالله الذي يسمع نداء نفوسكم التوجعة ويرى صدوركم المقروحة. وأنا أهتف بالتجليم التي تحررني وتحرركم من عبودية البشر، ولتوقفنا جميعا بغير قيود على الأرض مولى الأنام الله

كنت في الدير راعيا للبقر، ولكن الفؤاد مع البهائم الخرساء في البرية الساكنة لم يعمني عن المأساة الأليمة التي تمثلونها كرها في الحقول. ولم يصم أذني عن صراخ البأس المتصاعد من قرانا الأكواخ. قد نظرت فرأيتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النعاج سائر وراء ذئب خاطف إلى وكره فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثا، فهجم الذئب ولهث بأنيابه المحددة. ثم اقبل علي وابتدأ كيما يثير الرعب في روع القطيع فيتمرد ويتفرق مدعوا إلى كل ناحية ويتركه منفردا جائعا في ظلام الليل.

قد احتملت السجن والجوع والعطش من اجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم، وقاسيت العذاب والجلد والسخرية لأنني

جعلت لسكينة تضمد اتكم صوتا صارخا مشوها في خلايا الدير. ولكني لم أقف قط ولم يضعف قلبي لأن صراخكم الأليم كان يقطع نفسي ويجدد قواي. ويجب الى الاضطهاد والاستشهاد والموت.

انتم تسألون نفوسكم الآن قائلين: متى صرخنا تستغيثون والحق فريسنا يتجاسر ان يفتح شفتيه؟ وأنا اقول لكم أن نفوسكم تصرخ متظلمة في كل يوم. وقلوبكم تستغيث متوجعة في كل ليلة ولكنكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم، لأن المنارع لا يسمع شرجة صدره، اما الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون، والطائر المذبوح يرفرف شاهدا على قرارته ولا يعلم. اما الناظرون فيعلمون.

في اية ساعة من النهار لا تتأوه ارواحكم متوجعة؟ أفي الصباح عندما تتركم محبة البقاء وتمزق نقاب الكرة عن اجفانكم وتقودكم كالعبيد إلى الحقول؟ ام في الظهيرة عندما تشتمون الجلوس في ظل الاستجمار لكي تنقوا سمام الشمس المحرقة ولا تستطيعون؟ ام في المساء عندما تعودون جائعين إلى اكواخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر؟ ام في الليل عندما تتراكم المتاعب على الأسرة والمجوسية فتناجون فلقين. ولا يكحل النعاس اجفانكم إلا وتهبون متوجسين صوت الشيخ يرن في آذانكم؟ وفي اية فصل من السنة لا تندب قلوبكم متحسرة؟ أفي الربيع عندما ترتدي الطبيعة حلة جديدة فتفرجون لمشاهدة ثعابين الطيور بالية ممزقة؟ ام في الصيف عندما

تحصدون الزرع وتجمعون الأغمار على البيادر وتملأون أفراسبكم الظلوم بالغلة،
ولا تحملون لقاء اتعابكم على غير التبن والزوان؟ ام في الخريف عندما تجنون الأثمار
وتقصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها سوى الخل والبلوط؟ ام في الشتاء عندما
يغطيكم الفضاء ويطردكم البرد والزمهرير إلى الأكواخ الملتحفة بالثلوج،
فتجلسون بجانب المواقد متأففين غاضبين غضب الزوابع والعواصف؟

هذه هي جبانكم ايها القراء. هذا هو الليل المخيم على ارواحكم أيضا
التعساء. هذه هي أشباح ذلكم وشقائكم ايها المساكين. هذا هو الصراخ
الأليم المستتر الذي سمعته خارجا من اعماق صدوركم، فاستيقظت وثرت
على الرهبان وكفرت بمعيشتهم، ووقفت منفردا مستظلما باسمكم واسم العدالة
المتبعة باوجاعكم، فعبثوني كافرا شريرا وطردوني من الدير. فجئت لكي
أشاطركم التعاسة وأعيش بقربكم، وأمزج دموعي بدموعكم. فأسلمتموني
لكتوفا إلى عدوكم القوي الذي يغتصب ثمراتكم، ويحيا غنيا بأموالكم وبملأ جوفه
الواسع من أثمار أتعابكم

ألا ليوجد بينكم شيوخ يعلمون أن الأرض التي تحرثونها وتحرمون غلتها
هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة
على حد السيف. أما سمعتم بأن الرهبان قد احتالوا على جدودكم وانتزعوا ازارعهم
وكرومهم عندما كانت آيات الدين محظوظة على شفتي الكاهن؟

ألا تعلمون أن ممثلي الدين وأبناء الشرف الموروث يتعاونون على اضطهادكم واذلالكم واستعبادكم؟ فلو بكم، اى رجل منكم لم يلوعنقه كامن الكنيسة امام سيدة الحقول، والى إمرأة بينكم لم يزجرها سيدة الحقول ولستعفها لكى تتبع شيئة كامن الكنيسة.

قد سمعتم بأن الله قال للانسان الاول: بعرق جبينك تاكل خبزك فلماذا ياكل الشيخ عباس خبزه بجهود لا بعرق جبينكم ويشرب خمره ممزوجة بدموعكم؟ هل سيء الله هذا الرجل وجعله سيدًا اذا كان في رحم امه؟ ام غضب عليكم الذي بجهولته وبعثكم عبيدًا الى هذه الحياة لكى تجمعوا غلة الحقول ولا تأكلوا غير أسئار الاوردي، ولتقيموا القصور الفخمة ولا تكنوا غير اكواخ المساكين؟

ثم يضيف قائلاً: نعم ان اباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والأمراء.. وهو القادر على كل شيء ولكن هل تعتقدون أن أباكم الذي احبكم وعلمكم سبل الحق بواسطة انبيائه يريد ان تكونوا مغلوبين ومرذولين؟ هل تعتقدون أن الله الذي ينشيء السحاب سدًا، ويستنبت البذور زرعًا، وينمي الزهور أشجارًا يريد ان تكونوا اجباعًا محتقرين لكي يبقى واحد بينكم منتفخًا متلذذًا؟ هل تعتقدون أن الروح السماوي الذي يوحي اليكم محبة الزوجة والرأفة بالبنين والشفقة على الغريب يقيم عليكم سيدًا قاسيًا يقلمكم ويستعبد أياكم؟ هل تعتقدون

أن النواميس الأزليه التي تحبب إليكم نور الحياة تبعث إليكم بمن يحبب إليكم ظلمة الموت؛ هل تعتقدون أن الطبيعة قد بثت القوى في اجسادكم لكي تعود فتوضعها امام الضعف.

انتم لا تعتقدون بهذه الأشياء. لانكم اذا فعلتم تكونون كافرين بالعدل الالهي. جاهدوا نور الحق الذي يضيئ على جميع الناس اذا اتى شئ يجعلكم تشاهدون الشر على نفوسكم ولماذا تخالفون مشيئة الله الذي بثكم أسرارا إلى هذا العالم وتصيرون عبيدا للشر دين على نواميسه. كيف تعرفون اعينكم نحو الاشياء القوى وتدعون أباه ثم تحتقرون رفاقكم امام الانسان الضعيف وتدعون سيدا؛ كيف يرضى أبناء الله ان يكونوا عبيدا للبشر؛ اما دعاكم ليسوع اخوة، فكيف تدعوكم الشيخ عباس اخوة؛ اما جعلكم يسوع أسرارا بالروح والحق. فكيف يجعلكم الشر عبيدا للجسد والفساد؛ اما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء، فكيف تخفضونها إلى التراب؛ اما سكب يسوع النور في قلوبكم، فكيف تغمرونها بالظلام؟

ان الله قد بث ارواحكم في هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزيد جمالا باستقلالها فيما بالايام والليالي، كيف تلقونها بالرماد لتبيد وتنطفئ؛ ان الله قد وهب نفوسكم اجنحة لتطير بها سابحة في فضاء الحب والحرية. فلماذا تجزونها بايديكم وتدبون كالحشرات على أديم الأرض؛ ان الله قد وضع

في حقولكم لبذور السعادة، فكيف تنتزعونها وتطرحونها على الصخر لتلتقطها الديران وتذريها الأرياح؟ ان الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدربوهم على سبل الحق وتملأوا صدورهم بأغاني الكيان وتتركوا لهم غبطة الحياة إرثا ثمينا. فكيف تقبعون وتخلقونهم أمواتا بين أيدي الدهر عزباء في ارض مولدهم. تعساء امام وجه الشمس! أوليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبدا، يكون كالوالد الذي يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجرا. اما أيتم عصا مبر الفضل تدرب فراخها على الطيران. فكيف تعلمون صغاركم حب الخلود والسلسل؟ اما أيتم زهور الأودية لتودع بذورها حرارة الشمس. فكيف تسلمون اطفالكم الى القلة الباردة؟ (1)

نرى المرأة في كتابات جبران خليل جبران تدعوها الى التحرر من القيود التقاليد الدينية والاجتماعية وينتقد لشدة الزواج الذي لا يراعي الحب الطبيعي بين الرجل والمرأة بل لتضج المرأة كالسلع التي تباع وتشترى وهذه المعاني لا تزال باقية في مجتمعاتنا حتى اليوم. فالمرأة تقتل في صفوف المهار لعدم لدفع الدولة كما انها تزوج قسرا رغما عنها.. والحق انها لا تعرف من هو الشخص ما هي طبيعته ولا تعت لها بأنه مهلوت، فهي مطلوبة في نظر جبران ويدور روايته جبران حول قصة رجل كان له بنت وتحمل اسم القصة وكان الأب زوجها من رجل غني ثري بمجرد السبب انها تكون سعيدة له ولعائلته وتوفر له الجاه والمال

(1) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ص: ١٥٤ - ١٥٥

كتابات عديدة في هذا الصدد، وله قصة أخرى، قرأ ان امرأة أدنت الفاروف
إلى الدعارة وذهب كاتب القصة إلى تعزيتها وليقول، لست كالأرض يا مرتا وان سكنت
بين القبور، ولست دنسة وان وهبتك الحياة بين أيدي الدنسين. إن ادران الجسد لا
تلامس النفس النقية. والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحية، وما هذه الحياة
سوى بيدر أحزان تدرس عليه أثمار النفوس قبل ان تغطى غلتها. ولكن
ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر. لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء
تلتقطها. فلا تدخل أهواء رب الحقل. أنت مطلوبة يا مرتا وظالمك
هو ابن العصور. ذو المال الكثير والنفس الصغيرة. أنت مطلوبة ومحتقرة
وخير للانسان ان يكون مظلوما من ان يكون ظالما. وأخلق به ان يكون شهيد
ضعف العبرة المرابية من ان يكون قويا ساقطا بمقابضه زهر الحياة
ثوما بمبوله محاسن العواطف. النفس يا مرتا هي خلقة ذهبية تفرولة
من سلسلة الألوهية، فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة وتغير صورتها
وتمحو جمال إستدارتها. لكنها لا تحيل ذهبها إلى مادة أخرى. بل تزيده لمعانا
ولكن ويل للهشيم إذ تأتي النار فتلتهمه وتجعله رمادا ثم تهب الرياح
وتذريه على وجه الصحراء... إي مرتا. أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام
الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية. قد استلك تلك السفال بقارورة. لكنها
لم تخف عطرك المتصاعد مع لواعج الأرامل وصراخ اليتامى وتنهدات

الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة . لتعزى يا مرتا بكرنك زهرة

مسحوقة ولست قدما ساحقة ! » ①

وهناك قصة أخرى لجبران وردة الهانى وسنها نتقل لبعض

الانسانيات التى تدل على مأساة المرأة ② « تعال فأريك فتايا هولاء الناس

الذين لم أرض أن أكون بينهم ..... إلى ذلك القصر ذى الأعمدة الرخامية

والبوائك النحاسية والنوافذ الملونة . ففيه يسكن رجل غنى ورث ماله عن

والده البخيل واكتسب أخلاقه من جوانب الأزقة المفعمة بالمفاسد .

وقد تزوج لتوه عاهرة بأمر أة لم يعرف عنها شيئاً سوى ان لوالدها شرفا

موروثا ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد . ولم ينقض شهر العسل حتى

ملها مشعوذاً وعاد إلى مسامرة بنات الهوى . وتركها في هذا القصر مثلما

يترك السكير قبره فحم غارقة ، فانكبت وتوجعت لأول وهلة ثم تصبرت

وسألت سلوى من عرف فتاه . وعلمت أن دموعها هى اثمن من ان تهرق على

خسارة رجل مثل زوجها وهى الآن مشغولة عن كل شئ بعشق فتى جميل الوجه

حلو الحديث ، تسكب من رحيقه على الطف قلبها وتملأ جيوبه من ذهب

بهاها الذى يفيض الطرف عنها لانها جيوبه من ذهب بعلها الذى يفيض

الطرف عنها لانها تفيض الطرف عنه .. ثم التفتا إلى ذلك البيت المحاط

---

① المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ص: ٦٥ — ٦٦ ② نفس المصدر السابق - ص: ٩٤ - ٩٥

بالحديقة الغناء. فهو سكن رجل ينتمي إلى أسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة. وقد انخفض شأنها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف ابنائها إلى التواني والكسل. وقد اقترن هذا الرجل منذ اعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنها غنية جدا. ولبعد استيلائه على ثروتها العائلة نسي وجودها واتخذ له خليلة حسناء وغادرها تنفث أهابعها لذة وتذوب شوقا وحنينا... وهي الآن تصرف الساعات بتصفيف شعرها، وتكحيل عينيها، وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير، وتزيين قامتها بالأطالس والحرير، لعلها تحظى بنظرة من أحد زائريها. لكنها لا تحصل إلا على نظرات شبعها في المرآة.

... ثم انتقل إلى ذلك المنزل الكبير المزين بالنقوش والتماثيل. فهو منزل امرأة جباة الوجه، فبيئة النفس. قد عاش زوجها الأول فاستأثرت بأمواله واملاكه ثم اختارت من بين الرجال رجلا نحيف الجسم والإرادة واتخذته بعلا لتتعتم باسمه من ألسنة الناس وتدافع بوجوده عن مثلاثها. وهي الآن بين بريدها كالنحلة تمتص من الزهور ما كان حلوا ولذيذا. وانتقل إلى تلك الدار ذات الأروقة الوسيعة والقناطر البديعة. فهي سكن رجل مادي الميول كثير الشاغل والمطامع، وله زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن، وكل ما في روحها حلو ولطيف، وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد فتماثلتا في الشعر نعمة

الوزن برقة المعانى ، فهى قد كونت لتعيش بالحب وتموت به . ولكنها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة ، وهى الآن سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيدة ، وتضحل على مهل كالرائحة الزكية أمام العاصفة ، وتفنى حبا شيئ جميل تشعر به ولا تراه ، وتصبو حنينا إلى معانقة الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتتحرر من عبودية رجل يصرف الأيام بجمع الدنانير والليالى بعدها وبصر اسنانه مجدفا على الساعة التى تزوج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابنا ليحيى إسمه ويرث ماله وخيراته"

فنرى أن جبران لا يحب أن يكون سلعا يباع ويشترى كما أنه لا يحب أن يعقد الزواج بارادة الأب والديانة والإجتماع بل يريد أن يربط الإثنين الحب الفطرى ولا المال ولا الحسب والنسب والجاه .

وليس حبه للفقراء والمساكين والضعفاء اقل من المرأة ويعتقد بأن الإنسان اذ يعطى شيئا إنسانا آخر ما هو من حقه عليه بل هو حقه فى ماله . فيقول فى النبى ①

« جميل أن تعطى من يسألك ما هو بحاجة .

ولكن أجمل من ذلك أن تعطى من لا يسألك وأنت تعرف حاجته »

فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون فرحه لسعيه إلى من يتقبل

---

① المجموعة الكاملة المحررة ص: ٩٢ .

عطاياه والإهتداء إليه أعظم منه بالعطاء نفسه »

كما أننا نرى جبران أنه يروى لنا قصة ان رجلا غنيا ادرك معنى الغنى والسعادة وبدأ يحب الفقراء فكيف يعود إلى بيته لينفق كل ما لديه فى حق الفقراء(١)

وقام الوسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوّها مرددا: أهذا هو المال ؟ أهذا الإله الذى صرت كاهنه ؟ أهذا ما نبتاع بالحياة ولا يمكننا أن نستبدل به ذرة من الحياة ؟ من يبيعنى فكرا جميلا بقنطار من الذهب ؟ من ياخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبّة ؟ من يعطينى عينا ترى الجمال ويأخذ خزائنى ؟ -

ثم يخاطب الفقراء وعنوانه « خليلى خليلى » إن الفقر يظهر النفس، والغنى يبين لؤمها، والحزن يلطف العواطف، والسرور يدللها، لان الإنسان ما برح يستخدم المال والسرور توصلا للازدياد، مثلما يفعل باسم الكتاب شرا ينزه عنه الكتاب وباسم الإنسانية ما تأباه الإنسانية .»

إن الساعة التى تصرفها، أيها الفقير، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل لهى رمز العائلة البشرية المستقبلة، هى عنوان سعادة الأجيال الآتية، والحياة التى يصرفها المصرى بين الخزائن لهى حياة دنية تحاكى حياة الدود فى القبور، هى رمز الخوف . (٢)

---

(١) المجموعة الكاملة لجبران ص ٦٧ - ٦٨ (٢) نفس المصدر ص ٢١٠ - ٢١١

وهكذا نرى جبران أنه يحث الضعفاء والمساكين على تغيير أحوالهم والنهوض بامورهم كما أنه يحث الناس على الحب لهؤلاء وبذل كل مافي وسعهم من المقدرات لترقيتهم فهو سبيل السعادة والخير والمجد.

المساواة والحب للضعفاء

إنما الدعوة إلى المساواة والحب للضعفاء ليس بشيئ جديد في مجتمعنا ولكن من يرى بنظرة هذا الأديب الفذ، والذى يعتقد أن هناك أسباب وراء ضعف الناس ولؤمهم فأخوتنا ومساواتنا تدعونا أن نهتم بامورهم حتى لا نرتكبوا المآثم والجرائم واذا لم نقم بواجبنا ونصير هؤلاء الضعفاء/جناة ففى الحقيقة ليسوهم بمجرمين بل هم ضعفاء وقد جعلناهم نحن الجناة والآثمين ولورد قصة فهى حكاية ثلاثة حكم عليهم الأمير بالقتل من غير أن يسألهم سؤالا ومن غير أن يسمع شهادة شاهد فى قضاياهم أولهم شاب اتهم بقتل ضابط. ولكنه قتل دفاعا عن عرضه وشرفه وثانيهم فتاة اتهمها زوجها بالخيانة. ولكنها فى الواقع ماخانته، بل لم تكن تحبه لأنها ارتبطت به قسرا ارادتها. وكانت تحب سواه. وقد فوجئت فى خلوة مع حبيبها فاتهمت بالخيانة وحكم عليها بالرجم وثالثهم شيخ اتهموه بسرقة بعض الأواني الذهبية من كنيسة الدير. ولكنه فى الواقع ماسرق غير زنبيل من الدقيق لانه كان يتضور واولاده جوعا من بعد أن طرده الدير من خدمته، فيرى قتل هؤلاء الثلاثة جريمة فى ذاتها أن القضاء والحكم لم يأت بقرار سديد إذ أن هناك أسباب ادّت هؤلاء الثلاثة إلى فعل ما فعلوا. وكان على المجتمع أن يحبب هؤلاء ويعالج مشاكلهم اولا ثم اذا لم يرجعوا إلى الحياة الطبيعية فهناك تنفذ القوانين والمعاقبة/تتوجب وإن كان يحدث هذا قبل ذلك فهو فى ذاتها جريمة وهكذا إذا كان الأمير والقاضى متورطين فى نفس الجرائم

بطريقة اخرى فلماذا أحد منهم ليس بالمجرم والثاني القاضي والأمير ولكن

الساواة تعم للجميع بدون اي تفريق . ولنر كيف يحلل القصة جبران (١)

الشريعة - وما هي الشريعة؟ ان رأيتها نازلة مع نور الشمس من اعماق

السماء، واذا بشرى رأى قلب الله فعلم ستنبثق في البشر، وفي اي جيل

من الرجال سار الملائكة بين الناس قائلين، أرحموا الضعفاء، نور الحياة

وافرو الساطين بحد السيف، ودرسوا المحاماة أقدام من قيدين،

---

(١) المجموعة الكاملة لجبران خليل جبران ص (١٠٤ - ١٠٥)

الأخوة العالمية

قد دعا جبران خليل جبران إلى الأخوة العالمية ونبذ كل ما يحول دونها وهي الميزة الكبرى التي تميزه من بين الكتاب الآخرين في عصره فهناك في أدباء المهجر الذين دعوا إلى الوطنية والعروبة وهناك في العالم العربي وخاصة بمصر يتغنى الشاعر بأمجاد مصر وبقدسية الوطنية والعواطف والمشاعر الوطنية ولكن أديبنا هذا يرى الناس كلهم كالإخوة المتساوين سواء كانوا يقطنون في بلاد أميركا أو أقصى الشرق في الصين واليابان والهند أو يسكنون في جنوب أفريقيا وأستراليا. ولا يؤمن بأي افكار ومعتقدات تفصل الناس في مختلف الفئات وكما أنه لا يؤمن بالديانة الا الديانة الطبيعية أو البشرية التي توحد جميع الناس ويعتقد بأن كل الناس من اب واحد تحت هذه السماء. كما أنه يلغي من كتاب إعتقاداته الوطنية التي تعلم الناس سفك الدماء باسم الواجب الوطني ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يحب وطنه ومسقط رأسه ولو كان الأمر كذلك لما أوصى بنقل جثمانه إلى موطنه لبنان ولندرس معتقداته هذه في كتاباته -

ويكتب في مكان " اعفني من معاني السياسة واخبار السلطة. لأن الأرض كلها وطني وجميع البشر مواطني. (١)

ويكتب في مكان آخر عن سوء احوال الناس وسبب حروبهم فيقول. البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج وأنا أطلب شعلة المحبة لأضمها إلى

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ص (٢٩٢)

صدري فتاكل ضلوعي وتبري أحشائي ، لأني ألعنت المادة تميت الإنسان بلا ألم ، والمحبة تحييه بالأوجاع .

البشر ينقسمون إلى طوائف وعشائر وينتمون إلى بلاد وأصقاع ، وأنا أرى ذاتي غريبا في بلد واحد ، وخارجا عن امة واحدة ، فالأرض كلها وطني والعائلة البشرية عشيرتي ، لأني وجدت الإنسان ضعيفا ومن الصغر ينقسم على ذاته ، والأرض ضيقة ومن العبث أن تتجزأ إلى ممالك وإمارات .

البشر يتكاتفون على هدم هياكل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد ، وأنا وحدي واقف في موقف الرثاء ، على أنني أصغي فأسمع من داخلي صوت العمل قائلا : مثلما تحيي المحبة القلب البشري بالأوجاع كذا تعلمه الغباوة سبل المعرفة ، فالأوجاع والغباوة تؤول إلى لذة عظيمة ومعرفة كاملة ، لأن الحكمة السرمدية لم تخلق شيئا باطلا تحت الشمس (١)

هكذا أرى جبران خليل جبران يدعو إلى الأخوة العالمية وينبذ كل ما يعوق في سبيله بل ليست سبيلا مثل العلمية العمياء .

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ص ٣٤٤ - ٣٤٥

تأثير جبران خليل جبران في الأدباء العرب

«الذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة»

هذا ما قال جبران لنفسه. ولقد صدق ما قال، مضى وقت طويل ولا يزال القراء والباحثون والكتاب والأدباء يقرأون كتبا حتى يستقتون به ويستزيدون منه، فكم نسخ طبعت ووزعت في العالم. وهذا الكتاب «النبي» The Prophet طبع ألوف وملايين النسخ ولم تبق اي لغة تستحق العناية والذكر ولم يترجم اليها هذا الكتاب ولا تزال كتبه تترجم من اللغة العربية إلى اللغات العالمية والمحلية حتى الآن، كما أن جميع كتاباته العربية لم تزل تنال اقبال الناس عليها. بل يزداد التفات الناس إليها كل يوم ولعل ما كتبه أحد أساطين الأدب العربي وأكبر نقاد الأدب العربي الحديث يقابل لنعيمة أحسن مقال لذلك، لمن قرأ جبران كما قرأه غيره من القراء والمفكرين والمصلحين بأن يقول الكلمة «الكاملة» فلم يفته ان يقول الكلمة التي وضعتها الحياة على لسانه وبين شفتيه ومسحت له من العمر المدى الكافي لقولها. ولقد قالها عالية، هامية، جريئة، بعيدة الغوار، وهذه الكلمة - إن تسألني أين تجدها في مؤلفات جبران فأجيبك بأنك لن تجدها في هذا الكتاب أو في ذلك، ولا في هذه المقطوعة أو هاتيك. بل عليك إذا شئت أن تعرفها، بطالعة كل ما كتبه جبران من الوسيقى في «النائحة» فحياته وأعماله مثل حياة الإنسان وأعماله وحدة لا تتجزأ، وهي كالحلقة يتصل أولها بآخرها،

ومن ثم فالأرث الذي تركه لنا الإرث ضخم. فجدير بنا أن نستمتع به كاملا. ولهذا البحث منه

دون ذلك "

لقد صدق جبران إذ قال: "والذي أقوله الآن بلسان واحد ليقوله الآتي بالسنة عديدة"

مستهاما بهم قراءة اليوم اهتاف إهتاف قرأه اليوم أن كتب ذلك القائل منذ خمسة وثلاثين

من الأعوام. وهم في ازدياد مطرد عاما بعد عام، وهم تحت كل كوكب ومن شتى الأجناس

واللغات. فمن حقه علينا إذن من فوق ألفنا علينا أن نصون الإرث الذي خلفه لنا

من عبث العابثين ومن طمع المستثمرين.(١)

ومن ناحية أخرى قد نحس تأثيرا مباشرا لذلك دون تأثير الحركة الأدبية التي

تمادى هذه العبقري، الرائعة القلمية في المهجر، وما خلفت هذه الحركة

من الآثار. وفي الحقيقة هذه الحركة اعتبرت جزءا لا يتجزأ من تاريخ الأدب العربي

الحديث. ولولا كانت لما رأى الأدب العربي هذا التوسع في معانيه وموضوعاته

وفي كل مواضيعه بل قد لا يستطيع أن ينال مرتبة في الآداب العالمية. والتي

نتمتع بها الآن. فهل هناك أي كتاب عربي قال من ذكر أدب المهجر مفقودا أيضا

لا، لن تجد كتابا ما خاليا من هذا الذكر، كما أنكم لا تجدون كتابا في الأدب العربي الحديث

لا تجدون الذكر الجميل الذي خلف هذا الأديب والشاعر والرسام الفذ

نصفحوا كتب الأدب العربي بل كتاب يفتخر بنفسه أنه يحمل في طياته هذا الأدب

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران (٦ - ٧)

الفذ. أليس هذا برهان عظيم انه ترك في الأدب العربي أثراً عظيماً.. راجعوا الصحف والمجلات التي كانت تصدر في العالم العربي آنذاك. تجدون كثيراً أو كثيراً عن ذكر أدباء المهجر وآرائهم وافكارهم. وليس من مقدرة اي كاتب ان يستوعب كل ما كتب عن ادباء المهجر في العالم العربي. ومن ابرزهم اديبنا وشاعرنا جبران خليل جبران، فانه زعيم حركة الرومانسية في الأدب العربي كما انه قائد الرمزية وقد تمرد على التقاليد الاجتماعية ولفت اللحظة الأساليب التقليدية في زمانه حتى انه استخدم وابتدع الكلمات لم تكن رائجة في اللغة العربية وهذا مما أثار ضجة في الاوساط الأدبية وفاجأة بعض ادبائها أو ينتقدون به انه سيحطم جبران اللغة العربية ويهدم اصنامها المقدسة. متهمة طبقة من الأدباء بدأت تنفر عنه بالفعل هذا الأديب. فاذا نرى انه استخدم كلمة تحتم في النثر والشعر كليهما ولم تكن هذه الكلمة سائدة في اللغة العربية فقام الأديب الناقد الأكبر بقائل لغة مناهراً ومدافعاً عن وجهة نظره ولنرى كيف يكتب ذلك الكلمة تحتم في نثره ①

هل تحمت بسط × وتنفقت لبور

وشربت الفجر خمرا من كؤوس من أثيرا

---

① المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ص ٢٦٣)

ومن ثم يكتب عنه بخائل لنعيمة فيجبر انتقادات الناس عن لفيق الصفادع

ولقول .. « اذكر انني قرأت انتقادا ابن كاتب مصري لقصيدة جبران خليل جبران

« المواكب » وقد عثر فيها الناقد على هذا البيت :

هل تحممت بعطر . وتنشفت ببور

فأثبته ووضع بعد كلمة « تحممت » كلمة « كذا » ولعلها علامة استفهام.

وإن تنبئت فقل علامة إستغراب . كأن الناقد يقول للقارئ : انظر

هو يقول « تحممت » وليس في اللغة كلمة « تحمم » بل « استحم » فيا للبوعية!

سألتكم يا سادتي . بإسم العدل والفهم والقاموس . لماذا جاز لبدوي

لا أعرفه ولا تعرفونه أن يدخل على لغتكم كلمة « استحم » ولا يجوز لشاعر

اعرفه ولتعرفونه أن يجعلها « تحمم » . وأنتم لتفهمون قصده بل لتفهمون

« تحمم » قبل أن تفهموا « استحم » . وما هي التربية الرمدة التي تربط

ألسنتكم بلسان اعرابي عاش قبلكم بألوف السنين ولا تربطها بلسان شاعر

معاصر لكم ؟ لتقولون : « لو أجزنا لكل كاتب وشاعر أن يتصرف باشتقاقات اللغة

كما شاء لما بقيت لنا لغة » فأجيبكم : أنه لو صح ذلك لما كان لكم من لغة الآن

لأن الذين كتبوا او نظموا او الذين يكتبون وينظمون بلغتكم ولفهمون هذه

القاعدة صرفية او نحوية من قواعدها هم أضعاف أضعاف الذين كتبوا او

نظموا ولم يفهموا . بل ليس من كتب او نظم بالعربية إلا إرتكب بدل الهفوة

صفوات . هل لنبتم انتقادات المرحوم ابراهيم اليازجي اللغوية . ألم يعب أستاذه كثيرة على أكبر اساطين اللغة ؟ اولم يكن له من عاب عليه أساتذه كثيرة ، ولعلنا سمع ذلك . لا تزال هيبة ولم تثبت لبدو لنا الفوضى .

اما كم كلمتان : « استحم » وهي ثانوية . و « تحمم » وهي غير ثانوية . ألا ترون انكم اذا اعرضتم عن الثانية تضمحل الاولى . وفي الحالتين تجرون باختياركم حسب سنن طبيعة ليس لي ولا لكم فوقها أقل سلطة .

إن شأننا مع مصادع الأدب لشأن واللغة غريب عجيب . يقال عن ما نكتب منه لعن : « لغتنا الأفكار ونعتنا العواطف ولغتنا الأسلوب . لكن . . . اللغة ، كأننا فيما نكتب او ننظم نلقى عليهم دروسا في اللغة ، وكأن لا يهم لنا من النظم إلا ان نتحاشى الخطف والإستباع واستعمال « تحمم » بدلا من « استحم » ①

هذا اثر جبران في الادباء العرب وقد ثبت مع مرور الزمان أن الفكرة والابتداع الذي جاء به جبران صحيح . فلا يزال الباحثون والكتاب حتى يومنا هذا يناقشون هذا الأمر وقد بدا للجميع أن الشاعر او الكاتب الفذ له حق استخدام كلمة لم تكن سائدة في اللغة ولكنه استوحاها من دواعي الفطرة وعبقرية السامية

ولم يعد ادبنا هذا مقتصرا على العالم العربي فحسب . بل يعد الآن من كبار ادباء العالم اذ

---

① الغربال ص ٤١٠ - ٤١٢

نرى ان كتاباته ترجم فى اللغات الأجنبية وحتى فى اللغات المحلية فى مختلف

بقاع العالم . فانى رأيت ترجمة كتابه الاجنحة المتكسرة باللغة الهندية كما انها

ترجمت باللغة الإنجليزية باسم "Broken Wings" وباللغات العالمية الأخرى

وقد ترجمت كتابه "النبى" الى اكثر من (٢٠) لغة فى العالم . وهذا دليل واضح على تأثير كتاباته

فى الأدباء العرب وغير العرب .

خاتمة البحث

بفضل الله وعونه تم اجراء البحث عن النزعة الانسانية في كتابات جبران

قبل جبران، ففي نهاية المطاف يمكن تلخيص الموضوع كما يلي:

فخلال القرن التاسع عشر شهدت الدولة العثمانية تطورات وتغيرات داخل بلاد تعاقب حكامها جميعا ولم يعد لها من الممكن ان تبقى على سيطرتها ونفاذها بسبب التقاعس داخل النظام الحكومي ومؤامرة الغرب .. ونتيجة لذلك تفشى الظلم والطغيان في جميع الاقطار العربية وتقوت ايد قطاعية رساعدتها الدولة في أمرها للتمتع بثمارها. هكذا سلب الانسان وحرم من حقوقه الانسانية وفي الناس مكارم الاخلاق، وبدأ الناس يطيحون للرعب والحرية والعدل والمساواة والاخاء.

وبرز جبران خليل جبران الذي شاهد هذه المناظر البشعة داخل الأقطار العربية ومنها سوريا في بلاد الشام وقد رأى ايضا الذلاع الحرب العالمية الاولى والدمار الشامل الذي أسفرت عنها، فنادى بأعلى صوته يا أيها الناس اين تسيرون ولماذا تسنون انفسكم، لماذا تقتلون الانسانية وتقتلونها من أجل المادة واشباع نفوسكم الضالة.

واتضح لنا من خلال هذه الدراسة ان نظرة الانسانية مازال

تواقبا منذ نشوء الأدب أو حتى قبله بشكل أو آخر ولو كان مضمونها

وتصورها لم يكن جليا كما نجده اليوم. وهذا ليس بشيء غريب عندما نتصور إنسانية

في العصر الجاهلي على القيم الإنسانية وبعض الخصال المحمودة السائدة في تلك

الفترة ثم جاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور فأعطاهم مبادئ

وأسسا للإنسانية لا تزال تلمع في تاريخ الإنسانية حتى يومنا هذا

ثم تتابعت العصور وتناولت مواضيع الإنسانية وتناولها الأدباء والشعراء

الموضوعات لأنها تهم الشعب وتشاكلهم وتعانقهم بل كل أبناء الإنسان لأنها

لدى الحكام والأمراء والوزراء والعلماء باجادة تعرضها وكتابتها. واستمرت

هذه الفترة حتى تم اتصال الشرق بالغرب الذي أثار النفوس نقلا ثقافيا

واقتصاديا. وكان الناس يتمتعون بحرية أوسع وأكثر ويتمتعون بمكانة أكبر

وهذا الاتصال فتح عيون العالم الشرقي فنهضت الشعوب والأمم الشرقية

ومنها الشعب العربي.

وفي العصر الحديث تطور العالم الغربي وبذلك طرأ التطور على الأدب

والثقافة وكل شيء وبدأ الناس يهتمون بالأدب والفن وهذا مما أدى إلى

ظهور مختلف الاتجاهات الأدبية في الأدب العربي فمنهم من أصر على المحافظة

على مثل البارودي وحافظ إبراهيم. ومنهم من مال إلى التجديد مثل العقاد والمازني وشكري

مع الحفاظ على أصالة اللغة وكلما تقادم ظهرت طبقة أخرى لتبني الأدباء الشعراء

في الإبداع والاشتقاق من منهم - مما قبل لغتهم وجبران خليل جبران

وجب وجهة نظرهم اللغة واسطة للتعبير عن العواطف وليست هي الغاية

ويحق للشاعر والأديب اشتقاق الكلمات وشرك القوافي وإني لشعرت

وشد أن جبران خليل جبران بأسلوبه الجذاب خلاب يسحر العيون والقلوب

فاعترف به الزمان انه محق في موقفه .

كما ان دراسة لصور الإنسانية في كتابات جبران توضح لنا انه

يدعو إلى تكريم الانسان وتمجيده وتنزيهه من كل انواع العبودية . وكما

انه يدعو إلى المساواة والعدل والحب الانساني والإخاء العالمي ولا يجوز في

نظره سفك الدماء والاعتداء على الانسان باسم الدين والوطن واللون

وما إلى ذلك .

فهذا الغذاء الفني ضروري لحياتنا اذا نحن أردنا أن نحيا حياة الرجال والمطامح الانسانية التي يتطلع اليها

البشر ولتخلد رسالة جبران الإنسانية هذه .

المراجع

الكتب ـــــ بالعربية

القرآن الكريم

المجموعة الكاملة (المجلد الثالث)

لميخائيل نعيمة

دار العلم للملايين. عام - ١٩٢٤

الكلمة العربية.

للفرد الخوري

دار ريحاني للطباعة والنشر عام - ١٩٥٠

الشعر العربي في المهجر (امريكا الشمالية)

للدكتور احسان عباس، وللدكتور محمد يوسف نجم

دار صادر بيروت - عام - ١٩٦٧

المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران

دار صادر، دار بيروت - عام - ١٩٦٤

المجموعة الكاملة المعربة لمؤلفات جبران خليل جبران

دار صادر، دار بيروت عام - ١٩٦٤.

النثر المهجري.

للدكتور عبد الكريم الأشتر

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عام - ١٩٧٠

الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث

بقلم. أنيس المقدسي

دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٧٢

الشعر العربي في المهجر

لمحمد عبد الغني حسن

دار القلم - الكويت. شارع السور، عمارة السور، عام - ١٩٧٦

تطور الأدب الحديث في مصر

للدكتور احمد هيكل.

دار المعارف بمصر - عام - ١٩٧١

أمراء الشعراء العربي

بقلم. أنيس المقدسي

دار للملايين. ص. ب ١٠٨٥ بيروت. عام ١٩٨٧

جمهرة أشعار العرب (في الجاهلية والإسلام)

لأبي زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي.

دار النهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة (القاهرة)

تاريخ الأدب العربي (من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي الثاني)

للدكتور شوقي ضيف

دار المعارف بمصر كورنيش. النيل، القاهرة. ج. م. ع. عام ١٩٩٠

تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات، الجزيرة العربية، العراق، ايران)

للدكتور شوقي ضيف

دار المعارف بمصر كورنيش، النيل، القاهرة، ج. م. ع. عام - ١٩٩٠

تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات، الشام)

للدكتور شوقي ضيف

دار المعارف، بمصر، كورنيش، النيل، القاهرة. ج. م. ع عام - ١٩٩٠

كليلة ودمنة

لبيدبا الفيلسوف الهندى. نقله إلى العربية عبد الله بن المقفع.

مكتبة الإصلاح لبرائى سيراعظم كره. عام - ١٩٨٣

ديوان الحماسة:

لأبى تمام حبيب بن اوس الطائى مع شرح العلامة التبريزى.

فى الأدب الحديث

لعمر الدسوقى

دار الكتب العربى: عام - ١٩٦٦

الفنون الأدبية (فى النهضة العربية الحديثة)

لأنيس المقدسى،

دار العلم للملايين. ص.ب ١٠٨٥ بيروت. تلكس ٢٣١٦٦ لبنان عام ١٩٨٤

جبران خليل جبران.

للدكتور الحاوى.

جبران خليل جبران (مختارات ودراسات)

لسهيل بديع بشروى

دار الشرق بيروت عام - ١٩٧٠

قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر

للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ

دار المعارف بمصر، كورنيش النيل، القاهرة عام ١٩٧٠

لبنان في روائع اهلاة.

للدكتور جميل جبر

المطبعة الكاثوليكية. بيروت.

تاريخ الأدب العربي

لأحمد حسن الزيات

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الأدب العربي المعاصر في مصر

للدكتور شوقي ضيف

دار المعارف

الکتب ـــــــ بالأردیۃ

عربی ادب دیار غیر میں

سید ضیاء الحسن الندوی

معین دکن پریس چھتہ بازار حیدرآباد - ۱۹۸۱

امریکہ میں شعر و ادب کا ارتقاء

ڈاکٹر سید طفیل احمد مدنی

نیشنل آرٹ پرنٹرس آلہ باد

جبران خلیل جبران فن اور شخصیت

ڈاکٹر اشفاق احمد ندوی

نامی پریس لکھنو، دسمبر ۱۹۸۰

مختصر تاریخ اسلام

مولانا عبدالرسول مہر

تاج کمپنی دھلی - ۶ - ۱۹۹۳

دولت عثمانیہ

ڈاکٹر محمد عزیز

معارف پریس اعظم گڑھ ستمبر ۱۹۹۶

عربی ادب کی تاریخ (جلد اول)

ڈاکٹر عبد الحلیم الندوی

ترقی اردو بیورو نئی دھلی - ۱۹۸۲

الكتب ـــــ باالانجليزية.

History of the Arabs (Tenth-Edition)
By
Philip·K· Hitti-

Macmillian· ST· Martins-Press — 1972.

The Middle East & Northen Africa - Eurupa Publication

LOT. 1996-

The New Encyclopidia - Britannica — 15th Edition

Topic — Humanism Volume -20.

محتويات البحث

رقم الصفحة

تقديم ١

الباب الأول (أ)

- الفصل الأول : الأوضاع الاجتماعية - السياسة في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر -

- الفصل الثاني : الأوضاع الدينية والاقتصادية. ٣٠

الفصل الثالث : لبنان خلال الحكم العثماني ٣٢

الباب الأول (ب)

الفصل الأول : جبران في لبنان ٣٧

الفصل الثاني : جبران في امريكا ٣١

الفصل الثالث : العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية جبران. ٣٩

الباب الثاني

الفصل الأول : النزعة الانسانية في العصر الجاهلي ٤٢

الفصل الثاني : النزعة الانسانية في العصر الإسلامي والأموي ٤٩

الفصل الثالث : النزعة الانسانية في العصر العباسي ٦٠

الفصل الرابع : العصر منذ عام ١٣٥٨ إلى عام ١٧٩٨ ٦٧

الفصل الخامس: النزعة الانسانية في الأدب الحديث ٧٢

الباب الثالث

الفصل الاوّل : الاتجاهات الأدبية السائدة خلال ايام جبران خليل جبران ٧٩

الفصل الثاني : اسلوب كتابة جبران خليل جبران ٩٣

الفصل الثالث : الحب للطبيعة وتصويرها ١٠١

الباب الرابع

النزعة الانسانية في كتابات جبران خليل جبران

الفصل الاول : لصور الانسانية لدى جبران ١٠٦

الفصل الثاني : دعوة جبران إلى انهاض الطبقة الضعيفة من المجتمع ١١٢

الفصل الثالث : المساواة والحب للضعفاء ١٢١

الفصل الرابع : المرأة في آثار جبران ١٢٣

الفصل الخامس : تأثير كتابات جبران في أدباء العرب ١٢٥

خاتمة البحث ١٤١